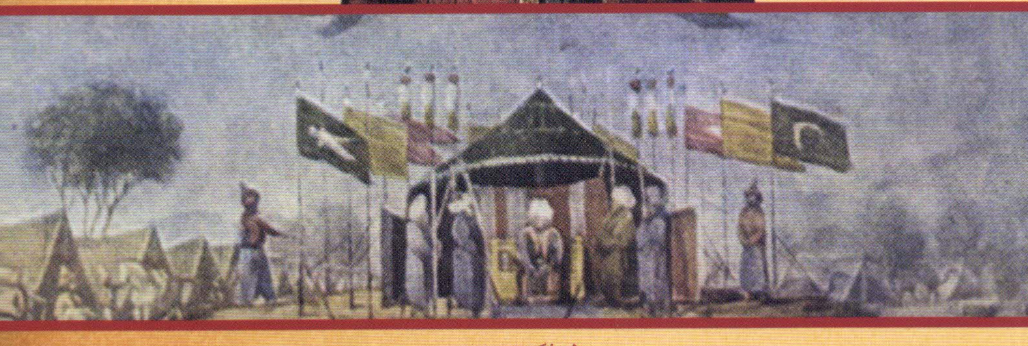
رواية

حلماً كان واقعاً صار

قصة مؤسس الدولة العثمانية





صالح كولن

دار النيل

رواية

حلمًا كان واقعًا صار

قصة مؤسس الدولة العثمانية

...انتهى حديث أَدَبَالِي وعثمان غازي في ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن خلد عثمان إلى النوم ظهر له في رؤياه هلالٌ خرج من حِجر الشيخ أَدَبَالِي، ثم استحال بدرًا، بعدها توارى في صدره، وما لبثت شجرة بلوط أن نبتت في حجره، وراحت تكبر، وتخضوضر تدريجيًا فامتدت ظلال أغصانها في القارات الثلاث، وانقسمت ستّة أغصان غطّت البحار واليابسة، وصارت جبال القوقاز وطوروس وأطلس أعمدة تشد من أزرها، وثمة أنهار عظيمة تتلاطم عند جذورها؛ وفيها تجري "دجلة" و"الفرات" و"النيل" و"طونة" وتتدفّق...

فاستيقظ عثمان متصببا عَرَقًا لعظمة ما رآه، وقص على أَدَبَالِي ذلك تفصيلًا، فكان يصدقه هازًّا رأسه... عثمانُ هذا الفتى العشرينيُّ أغرق شيخه أَدَبَالِي في عوالم مختلفة... فبشّره أدبالي مبتسما بعد صمتٍ برهةٍ:

- بُنيَّ عثمانُ، أبشر؛ لقد منَّ عليك ربّ العالمين وذريّتك بالسلطنة والحكم، بارك الله فيك وفيها؛ ستؤسّس دولة عظيمة تشمل حدودها القارات الثلاث الكبرى والبحار...


ISBN 978-9776183179



حُلمًا كان واقعًا صار

قصة مؤسس الدولة العثمانية



حُلمًا كان واقعًا صار

قصة مؤسس الدولة العثمانية

تحرير

إسماعيل كابار

مراجعة

يوكسل جلبنار - د. عبد الرازق أحمد

تصحيح

عبد الجواد محمد الحردان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع

2014/8854

ISBN: 978-977-618-317-9

رقم النشر

1001

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ب- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

القاهرة - 2014م

حُلمًا كان واقعًا صار

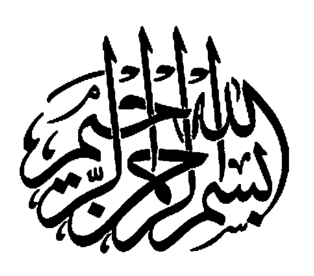
قصة مؤسس الدولة العثمانية

تأليف:

صالح كُولَن

ترجمة:

د. أَمَاني عدلي


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

رؤيا عجيبة ٩
مولد عثمان غازي ١٣
عربة الحمار ١٥
ويستمر الظلم ١٩
تعليم عثمان الصغير ٢٥
شابّ أسمر ٣٣
أن تكون كالسيد ٤٣
تعظيم القرآن الكريم ٤٩
الرؤيا أوّل بشارة للدولة العليّة ٥٣
البشرى التي جاءت مع الرؤيا ٥٧
سيّد شابّ ٦٣
الغارة الغاشية ٧١
الأفئدة تحترق ٧٩
وفي الربيع تتفتح الأزهار ٨٥
الحرب في "دُومَانِيجْ" ٨٩
القلب ينفطر ٩٧
الارتحال إلى "سَقَارْيَا" ١٠٣
الاستعداد للحرب ١١١
خُطّة ماكرة ١١٥
استعدادات الزفاف ١٢١

هديّة العرس ١٢٧
عُرس غريب ١٣١
الأميرة العروس ١٣٧
فتح "إينَاكُولْ" ١٤١
القصر ١٤٥
ميلاد دولة ١٤٩
الفتوحات الجديدة ١٥٥
معركة "قُويُونْ حِصَارْ" ١٥٩
الخطر المغولي ١٦٥
اعتناق مِيخَالْ غازي الإسلام ١٦٩
وتمضي الأعوام ١٧٥
اختيار السيّد الجديد ١٨١
أَدَبَالِي ١٨٧
الوداع ١٩٣
المصادر ١٩٧
الهوامش ١٩٩

ملحوظة:

أُلفت هذه الرواية التاريخية استنادًا إلى معلومات موثقة وردت في العديد من المصادر التاريخية، وقد تمّ التعريف بأسماء بعض الشخصيات والأماكن المهمة في هذه الرواية في نهاية الكتاب.



منمنمة تصوّر عثمان غازي مؤسس الدولة العثمانية

رؤيا عجيبة

تصبّب عرقًا أثناء نومه، رأى في حلمه موقدًا كبيرًا، موقد طعام يتطاير حوله الشـرر...، كان عليه قِدر كبيرة، سـوداء مثل الليل...، وكانت النيران تـزداد اشـتعالًا والمـاء يزداد غليانًا فـي القِدر، ثم فاض ماؤهـا...، وازداد فيضانًـا حتـى غمَر الأرجاء، وشـكَّلَ بحيرة صغيرة في البداية، سـرعان ما كبرت حتى صارت بحرًا وغطت الأرض جميعها.

استيقظ "أَرْطُغْرُولْ غَازِي (*Ertuğrul Gazi*)"[1] من نومه منتفضًا، ونادته زوجته السيدة حليمة:

- ما الأمر يا زوجي؟

- رأيتُ حلمًا يا سيدتي.

- وأنا استيقظتُ أيضًا على ركلات الطفل في بطني، نظرتُ فوجدتك تتصبب عرقًا، وتُردد قائلًا: "المياه، المياه..." ماذا رأيتَ؟

- لـو تأذنيـن لـي، أريد أن أحتفظ به سـرًّا يـا حليمة، ربمـا أرويه لكِ ذات يوم.

- كما تريد يا سيدي، هل ستنهض؟

-نعم، وأصلي بضـع ركعات.

- تَقبَّل الله.

وبعد الصلاة كان أَرْطُغْرُولْ غَازِي يفكّر متسـائلًا: تُرى إلامَ تشير هذه الرؤيا؟ كان يجب أن يقصّها على أحد العارفين، خطرت بباله فكرة وأذان الفجر يتسـلل إلى سـمعه من الخارج... سـيذهب بعد عدّة أيام إلى مدينة "قُونِيَـة (*Konya*)"[٢] لزيارة السـلطان السـلجوقيّ، وهنـاك يمكن أن يقصّ رؤياه على صديقه الحميم عبد العزيز مستوفي كاتب السلطان.

قبـل أن يسـافر إلى "قُونِيَـة" وَدَّع رئيسُ قبيلة "قَايِـي (*Kayı*)"[٣] عائلته، كان لديـه طفـلان؛ "كُونْدُوزْ (*Gündüz*)" و"سَـارُوبَاتُو سَـاوْجِي (*Sarubatu Savcı*)"[٤]، كان عمر ابنه الأكبر كُونْدُوزْ ست سنوات، وابنه سَارُوبَاتُو أربـع سنوات، ثم جثا وأمسك كتفي كُونْدُوزْ.

- "كُونْدُوزْ أَلْبْ (*Alp*)"[٥]!

- لبيك أبي!

- أستودعك البيت في غيابي يا ولدي؛ فلا تُخيّب ظنّي.

- إن شاء الله يا أبي.

- حسنًا يا بُنيَّ، أنت شجاع.

ثمّ وَدَّع السيّدة حليمة:

- اعتني جيّدًا بنفسكِ وبالأولاد وكذا بجنينك.

• • •

حـلّ الربيـع فـي "قُونِيَة"، وكانت الطبيعة منتشـية بميـلاد جديد، لكن حال سلاجقة الأناضول كان سيّئًا جدًّا؛ فالعاصفة المغولية التي حلّت مـع هزيمة "كُوسَه طَاغْ (*Kösedağ*)"[٦] قد جعلت الدولة العظيمة في حال يرثى لهـا؛ فالدولـة العظيمة التي كانت تواجه الصليبييـن بكلّ قوة في الماضي، صارت الآن تعيش آخر عصورها تابعة للمغول.

عندما رأى عبد العزيز مستوفي صديقه الحميم أَرْطُغْرُولْ غَازِي لدى باب القصر فرح فرحًا شديدًا، وبدأ الأخير يقص رؤياه على صديقه الحميم في القصر المطلّ على المدينة بهضبة "علاء الدين".

- رأيتُ حلمًا يا صديقي، حلمًا يتملك عقلي منذ أيام، لم أقصصه على أحد وأردتُ أن أستشيرك.

- خيرًا إن شاء الله، ماذا رأيتَ؟

حكى أَرْطُغْرُولْ غَازِي رؤياه بالتفصيل...، شاهد عبد العزيز مستوفي "قُونْيَة" من نافذة القصر برهة؛ كانت "قُونْيَة" قد التحفت باللون الأخضر، ثمّ نظر إلى صديقه بوجه متبسم.

- أَرْطُغْرُولْ غَازِي، تعرف أنه لا يُعمَل بالرؤيا وكذلك لا تُنكَر، ففيضان الماء إشارة إلى زيادة سلالتك، تنتظرك بشرى سارة يا أَرْطُغْرُولْ غَازِي، سيولَد لك ولد، وسيكبر، ومَن يأتي من نسله سيكبرون ويحكمون العالم في النهاية.

أضاء وجه أَرْطُغْرُولْ غَازِي، وأثناء عودته إلى "سُوغُوتْ (*Söğüt*)"(٧) كانت تظهر على وجهه السعادة، فإنّ ذريّته سيحكمون العالم، ولما وصل إلى "سُوغُوتْ" بشّر زوجته، وغمرتهما فرحة عارمة.

مـولد عثـمان غازي

بعد بضعة أشــهر وضعت حليمة حملها، وحَمَلت القابلات البشــرى لـ"أَرْطُغْرُولْ غَازِي"، وكان ينتظر الخبر على أحرّ من الجمر.

- أبشر يا سيدي، وُلِد لك ابن آخر.

بدأ أَرْطُغْرُولْ غَازِي يحمد الله، وبينما كان يقدِّم للقابلة الهدية، قال:

- كنتُ أعرف أنه سيكون لي ولد!

عادت القابلة في حيرة غير قادرة على فهم قوله.

أُقيم احتفال كبير لم يُرَ من قبل في "سُوغُوتْ"، يتصارع المتصارعون في جانب، وتُقام مسابقات الخيل في جانب آخر، ويحاول شجعان "قَايِي" السُّمْر بذّ بعضهم بعضًا في رمي السهام، لم يكن هناك أسعد من أَرْطُغْرُولْ؛ فكان يشاهد المتصارعين ومتسابقي الخيل ورماة السهام ويهنئهم...

علـى الجانـب الآخـر كانت النســاء فـي عجلـة لإيصال الطعـام إلى المآدب، وقد ملأت الأرجاء رائحة أشــهى الأطعمة من القدور الســاخنة، وبجانب الأطعمة كان الخبز يخبز على صفيـح ســاخن، وانشـغلت بعض الفتيات بإيصال اللبن الرائب إلى الموائد المبسوطة على العشب.

كانــت هناك أنــواع مــن الأطعمــة كالأرز باللحم، والعصائـر، واللبن الخثيـر، وحلـوى الـزردة...، كانــت اللحوم المقليّــة تُلـفّ بالخبز لتؤخذ دهونهـا، ثــمّ تُعــاد إلــى النار، وكــي لا يبرد ما يخـرج من النــار كان يُلفّ بالرقاق ويُوزَّع بين الموائد.

أمـر أَرْطُغْـرُولْ غَـازِي أمـرًا صارمًـا بـأن يكـون ذلك اليوم يـوم عيد في "سُـوغُوتْ"، وألّا يبقى شـخص حزينًا أو مستاء؛ كان هذا كله من أجل السيد المولود حديثًا!

أذَّن أَرْطُغْـرُولْ غَـازِي فـي الأذن اليمنـى وأقام في اليسـرى، ثم قال: "أُسـميك عثمان اسـم الخليفة الثالث ﷺ للنبيّ ﷺ وأتمنى أن تنشئ دولة كالتي رأيتُها في رؤياي يا ولدي".

عربة الحمار

بدأت عشيرة "قَايِي" تقضي الشتاء في "سُوغُوتْ" والصيف في "دُومَانِيجْ (Domaniç)"[٨] التي كانت هضبةً جميلة في الغاب، ولوحةً مدهشـة صُنعت من ظلال أشـجار الصَّنَوْبَر الضخمة، وكانت مكانًا تعلَّم فيه عثمان صعوبة تسلق المرتفعات، وأنّه كلّما ارتفـع رأى ما حوله بشكل أفضل.

بـذل أَرْطُغْـرُولْ غَازِي قُصارى جهده لاسـتكمال تعليـم أبنائه؛ فكان عثمـان الصغيـر يتلّقـى دروس القـرآن من الصبـاح إلى الظهيـرة، ثمّ يتلو ما حفظه على والده، وكان أذكى كثيرًا من الأطفال الآخرين؛ إذ كان يفهم ويتعلم بسرعة.

كان تدريب السهام بعد الظهيرة حيث تهدأ حدة الرياح في "دُومَانِيجْ"؛ شـاهد عثمان بإعجابٍ رمي الكبار، كانت سـهامهم من الصنوبر وقد ثُبِت بطرفهـا قطعـةُ حديد تُحـدث ثقبًا في دريئـةِ جلد الحَمَـل؛ أُعجب عثمان بحِضْب[٩] الأقواس وهَزَج السهام.

حـان وقـت العـودة مـن "دُومَانِيـجْ" إلـى "سُـوغُوتْ"، تسـير الخيالة في مقدمة القافلة وفي الخلف عربات تجرها الثيران...، قافلة هجرة طويلة يتبعها قطيع من الأغنام، والمعز، والحمير، والكلاب، وقد حملوا الأمتعة الثقيلة في عربات الثيران.

وصلوا "سُوغُوتْ" بعد رحلة استغرقت يومين، افتقد عثمان "سُوغُوتْ" كثيـرًا لا سـيّما عربـة الحمـار الصغيـرة...، إنّهـا عربة صغيـرة ذات أربـع

عجلات صنعها والده، وكان عثمان يغضب ممَن يسميها عربة الحمار، ويقول: "هذه ليست عربة حمار، بل عربة حصان".

وفي الحقيقة كانت تلك العربة صغيرة بحيث لا يمكن ربطها بالحصان، بل يمكن أن تُربط بحمار مُسِنّ قصير القامة، كانت هذه العربة أثمن شيء لدى عثمان.

أراد عثمان أن تسير عربته بسرعة شديدة كسرعة حصان والده، بيد أنّ الحمار المسنّ كان يسير كما يشاء، يمشي أحيانًا ويقف أخرى، كان بطيئًا حتى إنّ عثمان لم يستطع قيادة العربة سوى في المناطق الصخرية المكسوة بالعشب؛ لأن حماره عندما يجد خضرة لم يكن يتحرك من مكانه من دون أن يأكل العشب أمامه، وعندما ينتهي العشب يتحول إلى غيره، ويقف هناك ويأكل حتى يشبع تمامًا، وعندما يشبع لا يرغب في السير ويغلبه النعاس؛ فكان تسيير عربة الحمار هذه مهمةً صعبةً لعثمان مثل ركوب الخيل.

على الرغم من إصراره بشدة إلا أن والده لم يأذن له باصطحاب عربة الحمار إلى "دُومَانِيجْ"؛ فقد قال له: "متاعنا كثير وثقيل، ولا يمكننا حملها يا ولدي، عندما نعود إلى "سُوغُوتْ"، ستلعب بها".

في حين كانت القافلة تتقدم رويدًا رويدًا صوب "سُوغُوتْ"، كان عثمان يفكّر في لعبته، ولحظة وصوله إلى بلدته سيربط الحمار بعربته ويبدأ اللعب.

بدت "سُوغُوتْ" من بعيد، لكن كانت هناك أمور غير طبيعيّة، عندما نزلوا إلى "سُوغُوتْ"، لم يروا سوى محروقات ورماد أسود، وقد أدركوا حقيقة الأمر بعد مدّة وجيزة؛ فقد نُهب عند ذهابهم إلى الهضبة ما تركوه خلفهم من متاع وخيام، وسجّاد، وطاولات النسيج، وآلات الحدادة، وأحواض النحاس، والقدور، وعِدّة لُجُم، وأُحرقت أمتعة كثيرة.

ذهب عثمان فورًا إلى الخيام وبدأ يبحث عن عربة الحمار، لكن لم يستطع أن يجدها، كان اللون الأسود يغطّي الأرجاء كلّها؛ فيصعب عليه أن يجدها، ولما رُفعت المحروقات، ظهرت عربة عثمان أسفلها، لم يبقَ من العربة شيء سوى الحديد بين العجلتين؛ ذُهِلَ عثمان ممّا رآه؛ وبدأ يبكي بكاءً شديدًا...، بعد مدّة ذهب إلى والده، فوجده يتحدث مع أصدقائه الآخرين، قال أَرْطُغْرُولْ غَازِي:

- هذا من عمل "نِيقُولَا (*Nikola*)".

قال مَن حوله:

- فلنهاجم نِيقُولَا على الفور، ولنحاسبه على ما فعل.

تبسّم أَرْطُغْرُولْ بمرارة وقال:

- هل نقوم بحملة؟ ألا تعلمون أنّ الحملة لا يقوم بها إلا الجيش؟ كيف نقوم بحملة وليس لدينا جيش منظّم يا إخواني؟

أطرق الجميع برؤوسهم، عاجزين عن قول شيء، وكان عدد مقاتليهم لا يتجاوز المئتين، وهم يعلمون أنّهم إن لم ينتصروا على أعدائهم، فسوف يلحق الأذى بجميع مَن تركوهم خلفهم من شيوخ ونساء وأطفال.

أَرْطُغْرُولْ غَازِي:

- سنصبر في الوقت الحاضر أيّها الشجعان، ومن الآن فصاعدًا عندما نذهب إلى "دُومَانِيجْ"، فلنرسل ما نتركه خلفنا إلى حاكم "بِلَجِيكْ (*Bilecik*)"[١٠]، وعند عودتنا نعطيه أجرة حفاظه على متاعنا.

كان عثمان يستمع بانتباه إلى والده، واصل أَرْطُغْرُولْ غَازِي حديثه، قائلًا:

- أيّها الشـجعان، لا تفقدوا أملكم، والله تعالى غالب على أمره، يومًا ما سنحاسبه على جرائمه.

عندما ذهب الكبار من حوله، نادى عثمان والده.

- أبي!

- تفضل يا بُنيّ.

- عندما أكبر، هل يمكنني أن أحاسب نِيقُولَا على هذا؟

- علامَ ستحاسب نِيقُولَا يا بُنيّ؟

- سأسأله: لماذا أحرقَ عربتي؟

- لا تحزن! سـأصنـع لك عربة أخرى، لكن عندما تكبر اسأل نِيقُولَا: لمـاذا غـدر بنا؟ ولماذا نهـب متاعنا الذي صنعناه بجهودنـا، ولماذا أحرق الباقي منه؟

- أمرك يا أبي!

ويستمر الظلم

في العام التالي بدأت في أول أيام الربيع استعدادات الذهاب للهضبة، وضعوا الأمتعة الزائدة في الصناديق، واستعدوا لإيداعها في "بِلَجِيكْ"، وحُملت الأمتعة الأخرى على عربات تجرها الثيران.

مع بهجة الربيع بدأت هجرة قصيرة من "سُوغُوتْ" إلى "دُومَانِيجْ"، كانت الطبيعة والأزهار متعدّدة الألوان تحمل بهجة الحياة من جديد إلى الأرجاء كلّها، وكانت الزنابق وأزهار الخزامى البّريّة وزهور البنفسج الجبليّة كأنها قبس صغير من جمال الخالق ﷻ.

عندما وصلوا مشارف "بِلَجِيكْ"، تركوا أمتعتهم في قلعة "دِيكَنِيسْ (*Digenis*)" حاكم "بِلَجِيكْ"، تحدَّث أَرْطُغْرُولْ غَازِي مع دِيكَنِيسْ قائلًا:

- إذا حفظت أمتعتنا حتى نعود في الخريف، فإننا سنكافئك على هذا.

دِيكَنِيسْ:

- لا تقلق -يا صديقي أَرْطُغْرُولْ- على أمتعتك؛ فإني أحافظ عليها عامين إن شئت، وأنا لا أحملها على ظهري، لكن عند العودة سآخذ في المقابل خمسمائة قطعة ذهبيّة وخمسين قربة من الزبد، وخمسين قربة من الجبن، وخمسة قطعان من الأغنام.

- تطلب نقودًا لأمتعة لم تحملها على ظهرك، وكأنك حملتها.

- كما تشاء يا صديقي العزيز، إذا شئتَ اترك أمتعتك ثانية في "سُوغُوتْ" ولينهبها نِيقُولَا.

- إنك تأخذ كلّ شيء تطاله يدك، ليس لدينا ما نفعله، أنا موافق على عَرْضك.

لم يكن أَرْطُغْرُولْ غَازِي راضيًا عن الاتفاق، لكن يبدو أن لا حلّ آخر.

بعد أن تركوا حمولتهم في "بِلَجِيكْ" واصلوا طريقهم إلى "دُومَانِيجْ" بجوار "تَخْتَه كُوبْرُو (Tahta Köprü)"(١١)، وبينما كانوا يمرون بالغاب، إذ بهم يسمعون صهيل الخيل في المقدمة ونباح كلاب الراعي.

مكانكم! إذا تحرك أحد من مكانه، فسنقتلكم جميعًا!

قطع نِيقُولَا حاكم "إِينَاكُولْ" ورجاله طريقهم، وحاصر ما يقرب من ثلاثمائة فارس من عشيرة "قَايِي"، حاول أَرْطُغْرُولْ غَازِي إقناع نِيقُولَا، قائلًا:

- ليس لنا شأن بأحد، إننا ذاهبون إلى "دُومَانِيجْ" حيث الهضبة.

- ذاهبون إلى "دُومَانِيجْ"؟ علمت أنكم تركتم أمتعتكم في "بِلَجِيكْ" كي لا نسلبها!

- ...!

صاح نِيقُولَا ضاحكًا:

- أنتم لم تتعلّموا بعدُ أن لا مفرّ منّي.

لم يتحمل عثمان وقاحة نِيقُولَا أكثر من هذا، وبدأ يصيح من مكانه:

- سترى -يا نِيقُولَا- عندما أكبر وأهزمك!

نثر رجال نِيقُولَا كنانتهم بعد أن سمعوا صوت عثمان واستهدفوه.

تدخل أَرْطُغْرُولْ غَازِي قائلًا:

- نِيقُولَا، إنه لا يزال طفلًا، ماذا تريد؟

- أريد أغنامكم.

- خذ ما تشاء سوى النُسُولة.

بدأ عثمان هذه المرّة يصيح بأعلى صوته مجددًا:

- كلا! إنّها أغنامنا، لن تستطيعوا أخذها!

أُعجب أَرْطُغْرُولْ غَازِي كثيرًا بشجاعة ابنه، لكن لم يكن الوقت مناسبًا لهذا، كان مسؤولًا عن رعيته، وعليه ألا يُعَرِّض حياتهم للخطر؛ نادى ابنه الأكبر كُونْدُوزْ:

- كُونْدُوزْ، احمِ أخاك يا ولدي!

وبينما يتقدم نِيقُولَا بالأغنام المنهوبة، كان عثمان يصيح بأعلى صوته من دون اكتراث بمحاولة أخيه الأكبر إسكاته:

- سترى يا نِيقُولَا، سأحاسبك على كل ما تفعله هذا!

لم يكن من الممكن إسكات عثمان الصغير، كان نِيقُولَا قد ذهب منذ وقت طويل، لكن لم ينتهِ سخط عثمان، وغَضِب من والده، كان يقول:

"لماذا أعطى الأغنام لقطّاع الطرق؟!"

عندما وصلت عشيرة "قَايِي" إلى "دُومَانِيجْ" لم تبقَ بأيديهم من الأغنام سوى النسولة، كان أَرْطُغْرُولْ غَازِي مهمومًا لما أصابهم من عجز؛ جلس وحيدًا على صخرة، ونظر إلى الأفق، وقد بدا الحزن على وجهه، أفاق من شروده على نداء صديقه الحميم "آقْچَه قُوجَه (*Akça Koca*)"[١٢]:

- أتأذن لي يا سيدي؟

- تعالَ يا آقْچَه قُوجَه، لا داعي للاستئذان.

- كيف حالك يا سيدي؟

- حالـي كحـال ذئـب وقـع في فـخّ، لا حيلة لـي، لا أدري هل هذه المصائب كلّها تلاحقنا بسبب عجزي!

- كلا يـا سـيدي، أعلم أنّك حزين بسـبب قطـع نِيقُـولَا الطريق علينا وبسـبب أغنامنا المسـلوبة إتاوة، وأعلم أيضًا أنّك لا تريد أن تلقي بنا إلى التهلكة لضعفنا عسكريًا، فلا تحزن لهذا يا سيدي.

- إلى متى الحال هكذا يا آقْجَه قُوجَه؟ هل تظلّ عشـيرتي ذليلة هكذا في مواجهة حكام الروم؟ ماذا سنعطي لحاكم "بِلَجِيكْ"؟

- هـل شـاهدت شـروق الشـمس مِـن "سِـيوْرِي قَايَـا (*Sivri Kaya*)" يا سيدي؟

- لماذا تسأل؟

- لأنه قبل أن تشرق الشمس -يا سيدي- يغطّي ظلام حالك الأنحاء كلّها، يحلّ الليل على الأرجاء كافّة مثل جاثوم يخنق الناس، لكن سرعان ما ترسـل الشـمس نورها، ولا يعرف الظلام ماذا يفعل، ثمّ يطلـع الفجر، وهـذه المرّة يحلّ ضوء أحمر على الأنحاء كافّة، ويبحث الظلام عن ثقب للهرب، ثمّ تشرق الشمس ولا يبقى أثر للظلام، وحالنا هكذا -يا سيدي- لكلّ شتاء ربيعه، ولكلّ ليل نهاره.

- صحيح، لكن هذا أيضًا لا يثلج صدري أيّها الشجاع!

- سـيدي، إذا كنّا قد فقدنا أغنامنا، فإننا سـنربي أغنامًا من جديد، وإذا كنّـا قـد فقدنا أموالنا، فسنكسـب من جديد، سـنوفرها ثانيـة، وإذا اقتضى الأمر فسنطلب المساعدة من الإمارات والعشائر الأخرى.

- نسـأل الله أن يغنينـا عنهـم، وألا تصل بنا الحال إلى هذا المسـتوى يا آقْجَه قُوجَه!

- أرأيتَ يا سيدي؟

- ماذا؟

- شجاعة سيد قبيلة "قَايِي" الصغير!

- أتقصد عثمان؟

- نعـم يـا سـيدي، عثمان وهـو لا يزال في هـذا العمر، رأيـتُ البرق يلمع في عينيه تجاه نِيقُولَا، ثم رأيتُ وصول يده إلى سيفه الخشبيّ، تنتظر عشيرة "قَايِي" أيامٌ مشرقة بإذن الله.

- إن شاء الله يا صديقي، إن شاء الله.

تعليم عثمان الصغير

كان تعليم عثمان مهمًا جدًا، وكان أَرْطُغْرُولْ غَازِي يود لو حصل ابنه على تعليم أفضل منه، فشاور رفاق الدرب في هذا الشأن.

- أيّها السادة، أمنيتي أن يتربى أبنائي ويتعلموا العلم والأدب ومكارم الأخلاق والفنون العسكريّة، لكن تعليمي وسنّي يحولان دون أن أقوم بذلك، فلا تبخلوا عليهم بمساعدتكم من الآن فصاعدًا.

غازي خليل:

- سيّدي، نحن مستعدون لتلبية طلبكم.

قسّموا الوظائف بينهم، وعُيّن أربعة أساتذة لتعليم عثمان.

استدعى أَرْطُغْرُولْ غَازِي ابنه عثمان، فأسرع عثمان الخُطى بهمة ابن الثامنة ونشاطه...

- تفضل يا أبي.

- اجلس هنا يا بُني، في هذا العمر ينبغي أن تتعلم فنون العسكريّة، لقد تعلمتَ قراءة القرآن الكريم، أليس كذلك؟

- بالطبع تعلمتُ، حتى إنّني حفظت كثيرًا من السور، إذا لم تصدّق فسأتلوها عليك.

- ما استدعيتك لأختبرك يا بُنيّ، استدعيتك للحديث في أمر آخر، من الآن فصاعدًا سيعلمك أساتذتك العلم والأخلاق وفنون القتال.

- أمرك يا أبي.

- اسمع يا بُنيّ، للتعليم خمسة أسس هي: العلم والأخلاق والأدب والقوة والشجاعة؛ فمَن لا علم له، فهو جاهل يسير على حافة الهاوية مغمض العينين، ومن السهل جدًّا خداعه؛ ومَن لا أخلاق عنده لا سيّما أخلاق الإسلام فهو كالشوكة، لا يصلح لأيّ عمل ولا يفيد أحدًا؛ ثم إنّ الإنسان الوقح عفن كريه الرائحة، ينفر الناس منه، والقوة سيف قاطع يمكن لليد التي تحمله أن تجاهد به أو تظلم؛ فإذا كان لدى مَن يحمل القوة بيده علم وأخلاق وأدب، فلن يُضارّ أحد من تلك القوة؛ ثم اعلم أن الإقدام رأس الشجاعة، فمن اجتمعت فيه تلك الصفات دون الشجاعة، فهو جسد بلا روح؛ خاملٌ لا يتحرّك؛ فلا تنسَ كلامي يا بُنيّ!

- فهمتُ يا أبي.

ظنّ أَرْطُغْرُولْ غَازِي أنّ ابنه لم يدرك كلامه جيّدًا رغم قوله: "فهمتُ يا أبي"، فالمهمّ الآن أن يتعلّم هذا الطفل العلم والأخلاق والأدب والقوة والشجاعة على الأقلّ.

كان هناك اهتمام كبير بتعليم عثمان الفنون العسكريّة والقتاليّة؛ علَّم أَرْطُغْرُولْ غَازِي ابنه عثمان ركوب الخيل بنفسه، فكان أحيانًا يسقط عن الحصان وأحيانًا يجمح به الحصان ويشبّب[١٣]، وتعلَّم ركوب الخيل على حصان والده الأسود بصعوبة كبيرة.

نسي عربة الحمار منذ زمن بعيد، وصار يركب الخيل؛ ولما عرض والده "إذا شئتَ صنعتُ لك عربة حمار جديدة يا بُنيّ" فرفض وقال: "ما لي ولعربة الحمار، لقد تعلّمت ركوب الخيل".

اشترط معلمه للبدء بتعلم رمي الرماح الجريَ حول البيدر، ثمّ ممارسة لعبة العقلة على غصن قوي بشجرة التوت، وتكرار هذه الحركة أربعين مرة في اليوم لتقوية ذراعيه؛ فقوة الذراع ضرورية في رمي الرماح.

كان رمي السهام ممتعًا جدًّا، لكن عليه أن يصنع سهمًا عن كلّ سهم يخطئ الهدف، ولم تكن صناعة السهام أمرًا ممتعًا أو سهلًا حسب رأيه.

جرت عادة الناس بقطع أغصان الصنوبر الملساء في الخريف عندما تجف الأشجار، وكان عثمان يذهب لقطع الأغصان عدّة مرّات، لم يكن أفراد القبيلة يريدون تكليفه بشيء، لكنّه كان شغوفًا بالعمل، لم يستطع عثمان أن يفسر سبب اهتمام الناس اهتمامًا كبيرًا باختيار الأغصان عند قطعها، إذ كانوا يتجولون كثيرًا ولا يجلبون سوى بضع حزم من الأغصان، وقد وجد عثمان طريقة أسهل لهذا العمل، وسرعان ما تناول فأسه وقطع الأغصان الملساء لشجرة صنوبر وجدها في أحد أطراف الغابة؛ فجمع من الأغصان في ساعتين ما تجمعه القبيلة في يوم كامل، وعاد إلى مضرب الخيام مفتخرًا بقيامه بعمل عظيم، ونادى أهله وهو يريهم أغصانًا جمَعَها:

- انظروا، لقد جمعتُ هذه الأغصان، فها أنا قد قمت في عدّة ساعات بعمل يقوم به الآخرون حتى المساء.

نظر معلمه حسن غازي بوجه باسم إلى عثمان الصغير، وبدأ قاطعو الأغصان الآخرون يضحكون في دهشة؛ أسكت حسن غازي الضاحكين:

- علامَ تضحكون؟ فها هو عثمان الصغير اجتهد مثلكم، لا يضحك أحد على المجتهد، هيا انشروا أغصانكم لتجفيفها.

لم يستطع عثمان فهم سبب ضحكهم عليه:

- أستاذي، أريد أن أجفّف أغصاني في مكان آخر.

- بالطبع -يا عثمان- جفّفها في المكان الذي تريده.

تُترك الأغصان لتجفيفها عامًا، وتوضع في الفرن لتصبح أكثر جفافًا، وبينما خرجت أغصان الآخرين من الفرن منتظمة، خرجت أغصان عثمان معوجة، وعندما رأى الناس هذا أخذوا يضحكون، أما عثمان فأوشك أن يبكي، فأدركه حسن غازي:

- لا تحزن يا عثمان، لا بدّ من الخبرة لكلّ عمل في الحياة.

- أغصان الجميع منتظمة، فلماذا اعوجّت أغصاني، رغم أنّني جمعت أغصانًا منتظمة مثلهم يا أستاذي!

- يا عثمان، ألم تقل بأنك جمعتَ أكثر من الآخرين في زمنٍ أقلّ؟

- بلى.

- إذًا هذا سبب جمعهم أغصانًا أقلّ منك؛ لأنهم جمعوها بعناية، إنهم يقطعون من الأغصان ما يكون في طول أربعة أشبار على الأقل ولا يكون به عقدة، أما أنت فقد قلّمت الأغصان الملساء وأحضرتها، هذه الأغصان عندما تدخل الفرن، تلتوي هكذا.

- أستاذي، ألم تكن تعرف هذا من قبل؟

- بلى، يا عثمان.

- إذًا لماذا لم تخبرني بهذا، عندما أحضرتُ الأغصان السنة الماضية؟

- يا ولدي الصغير، الإنسان يتذكّر قليلًا جدًّا ممّا يسمعه، أما ما يراه فيتذكّره أكثر، لا سيّما إذا رأى وسمِع وعمِل فإنه لا يَنْسَى أبدًا؛ لذا لم أقل لك شيئًا آنذاك.

واصَلَ عثمانُ تدريب السهام بسعادة؛ لأنّه تعلّم شيئًا جديدًا، كان ناجحًا في رمي السهام إلى مكان بعيد يومئذٍ، وكانت سهامه إلى السماء تسقط على بعد عشرات الأمتار، إلا أنّه لم يستطع أن يصيب الهدف آنذاك، لم يستطع أن يصوّب نحو الرديئة الجلديّة على بعد خمسين مترًا؛ فأخطأ ثماني عشرة من سبعين رمية قام بها، وكان هذا يعني أنّه سيصنع يومئذٍ ثمانية عشر سهمًا، فقال لمعلّمه:

- أستاذي، أليس من الممكن أن أجلس في يوم وأصنع ما أخطأته من السهام في التدريبات خلال أسبوع؟

قال معلّمه ضاحكًا من اقتراحه هذا:

- يا ولدي الصغير، لا يهمني أن أجعلك صانع سهام، بل أن تصيب هدفك حين ترمي السهام، عندما تصنع السهام كلّ يوم، فكِّر في السبب الذي جعلك تخطئ هدفَك، ولا تكرر ذلك الخطأ.

كان عدد السهام التي يصنعها عثمان يقلّ تدريجيًّا؛ فصارت الآن سهامه لا تخطئ الهدف، وراح حسن غازي يشاهد تلميذه بسعادة.

- يا ولدي الصغير، ها قد تعلمتَ رمي السهام إلى مكان بعيد وبدأت تصيب الهدف، يقول أجدادنا الـ "أُوغُوزْ (*Oğuz*)"(٤٤):

"لكي يُعَدّ التركيّ شجاعًا أو بطلًا لا بدّ أن يُسقِط الطائر المحلّق بسهمه".

ابتعد عثمان قائلًا:

- حسنًا!

وحينما همّ بالمغادرة، نادى معلّمَه:

- أستاذي، سأصطاد الحَجَلَ(١٥) ليؤكل في العشاء.

- إن شاء الله يا عثمان!

عـاد عثمان الذاهب بحماسـة كبيرة في المسـاء خالي الوفاض ناكس الرأس، ذهب إلى خيمة معلّمه قبل أن يذهب إلى خيمتهم مغرورق العينين يكاد يبكي.

- أستاذي، لقد رأيت اليوم سربًا من الطيور، لكني لم أستطـع أن أصيب أيًا منها؛ جميعها تتحرك بسرعة كبيرة، ولا أستطيـع أن ألحق بها.

- لا بأس يا عثمان، ستصيبها غدًا إن شاء الله.

ولم يتغير شيء في اليوم التالي أيضًا، ولا في الأسبوع التالي...، كان عثمان يعود من الصيد خالي الوفاض ناكس الرأس، وكانوا يضحكون منه قائلين:

- عثمان، أَعطنا سهامك ونحن نصطاد لك.

استـمرّ الحـال هكـذا ما يقرب من شـهر، كان عثمان فـي كلّ إخفاق له يصير أشدّ عزمًا.

وذات يـوم حينمـا كان ذاهبًـا إلى الصيد، رأى طائـرًا ميتًا في الطريق، فكّر قائلًا: "إذا أخذتُ هذا الطائر وعدتُ به، سيعتقد الجميـع أنّه صيدي، ولن يسخروا مني بعد ذلك" ثم قال: "لا، إنّني لا أحب الخداع؛ إنّ خداع النـاس يتنافـى مـع الأدب والأخـلاق"، فحفر حفرة صغيـرة ودفن الطائر الـذي وجـده فـي الطريق، ومـا كان يدري هـل تُقرأ الفاتحة علـى الطيور أم لا، لكنّـه فضّـل أن يقرأهـا، وعندما حلّ المسـاء وعند عودتـه إلى بيته لـم تكـن يداه هما الخاويتين فحسـب، بـل كانت جعبته علـى ظهره أيضًا خالية بعد أن استخدم جميـع ما بها من سهام.

مرّت الأيام هكذا، كان عثمان يُعِدّ سهمه كلما حلقت الطيور ويرميها به، أما الطيور فتكون قد تخطّت نقطة التقائها بالسهام؛ فلمعت عينا عثمان فجأة، وصاح قائلًا: "حسنًا، وجدتها! إنّني أرمي نحو موضع الطيور، فتكون قد هربت وأفلتت عندما يصل السهم؛ فيجب أن أرمي نحو الجهة التي ستطير إليها".

هكذا عرف كيف يصيب الطيور، عندما مدّ يده إلى جعبته، أدرك أنه لم يبق سهام أخرى، عاد ثانيةً، نظر أخوه الأكبر سَارُوبَاتُو سَاوْجِي إلى عثمان، ومازحه قائلًا: "خيرًا -أيّها البطل العظيم- أَعُدتَ اليوم أيضًا خالي الوفاض؟" حزن عثمان وسكت.

حينما كانت الشمس تُلملم آخر أشعتها في "سُوغُوتْ" وترحل عنها، كان عثمان يشاهد غروبها وهو يُفكّر كيف سينجح في الصيد.

في اليوم التالي عاد متسخ اليد والوجه، كان قد أصاب طائرًا، ها هو قد أصاب بسهمه طائرًا، جاء إلى مضرب الخيام صائحًا: "فعلتُها، فعلتُها!" ولا يتمالك نفسه من الفرح.

- ها أنا قد اصطدتُ، أسقطتُ الطائر من الهواء على الأرض! الآن صرت شجاعًا أيضًا!

سمع أَرْطُغْرُولْ غَازِي صياحه، فخرج من خيمته ونظر إلى ولده الذي كان في حالة يرثى لها، وقال بوجه باسم:

- ولدي الشجاع، الآن صرت أنت أيضًا شجاعًا، ثمّ قبّل جبهته.

ثمّ أهداه قوسًا جديدًا مكافأة، وقال له:

- من الآن فصاعدًا لا تستخدم هذا القوس اللين يا عثمان.

شعر عثمان بسعادة بالغة كأنما حاز الدنيا وما فيها.

شابّ أسمر

أصبح عثمان شـابًّا مفعمًا بالنشـاط بعد مرور عشر سنوات، إنه شاب جامـح، صـار يتدخّل أحيانًـا في أمورٍ تفوق عمـره، وأحيانًا يتجاوز حدّه، وقد اعتادت أذنه نوعًا ما على تحذيرات والده.

كان الصمت سـائدًا في الخيمة الكبيرة لعشيرة "قَايِي" في "سُوغُوتْ"، لم يكن يُسمَـع صوت سوى ثغاء بعض الغنم والحملان وحفيف الأشجار عنـد هبـوب الرياح، قطـع الصمـت صوت فارس يعدو بسـرعة من بعيد، كان هذا صهيل حصان عثمان الأسمر، وكان يسابق أصدقاءه بالخيل، وقد تخلفوا مئات الأمتار، أخذ يناديهم مستهزئًا بهم:

- ظننتُ أنّ ما لديكم خيل؛ إنّها لا تختلف عن البغال.

لـم يكـن أحد يجـرؤ على مواجهته لكونـه قويّ البنيـة، طويل القامة، عريض المنكبين، طويل الذراعين، كان بعضهم يطلق عليه عثمان الأسمر بسـبب وجهه الأسـمر الباقـل(١٦)؛ وكان بعضهم الآخـر يحبونه ويرجعون مشاكسـاته لشـبابه ويطلقـون عليـه "عُثْمَانْجِـقْ (*Osmancık*)"، أي: عثمان الصغير ابن أَرْطُغْرُولْ غَازِي...

كان عثمـان جامحًـا بطاقة شـبابه كلهـا، لم يكن هناك مَن لم يسـمع باسمه في قرى الروم، كان عزيز النفس، فلا يسمح لأحد أن يتحدّث عنه بسوء، بل لم يكن أحد يجرؤ أن يذكره بسوء؛ أجاد عثمان ركوب الخيل، وبرع في استعمال السيف، ولم يكن أحد ينافسه في رمي السهام.

كان يقـود حصانـه نحو أصدقائه بعنفوان الشـباب، ويخيفهم بسـيفه، وفي إحدى المرّات قال لهم:

- هيّا، لنتسابق في رمي السهام.

وضعـوا قِربـة على بعد خمسـين مترًا، كانت الأسـهم تصـدر صفيرًا وتمـرّ دون أن تلامـس القِربة، جاء دور عثمان فنظر إلى أصدقائه سـاخرًا، وضحك قائلًا:

- ألقوا حجارة بدلًا من أن ترموا سهامًا.

أخذ سـهمًا من جعبته، وشـدّ قوسـه جيـدًا، وفي اللحظـة التي بدأت فيها أصوات الطقطقة تصدر من أوتار القوس، رمى سهمه، اخترق السهم القربة.

فرح عثمان فرحًا شديدًا وقال لمن حوله:

- إذا رميتم السهم فارموه هكذا، فسيدخل من طرف الهدف، ويخرج مـن الطـرف الآخـر، أمـا أنتم فتطلقون السـهم مثـل الأطفـال وليس مثل الجنود، هيا اركبوا خيلكم، ولنذهب من هنا.

انطلق عثمان بعد أن شـبّب حصانه "آيْ إيشِـيغِي (*Ay Işığı*)" أيْ ضوء القمر، وتقدم مثيرًا الغبار، واسـتلّ سيفه وقطـع أطراف الأشجار من حوله دفعـة واحدة، قـاد حصانه تحت الأشـجار المنخفضة، وتدلّـى هذه المرّة علـى جانـب الحصان ممسـكًا بالسـرج، وعندما تقدَّم لوَّح بالسـيف نحو أصدقائه، فانزووا جميعهم مذعورين، ازدادت سعادة عثمان، وقال:

- فلتهربوا أيّها الدجاج الجبناء.

وبعـد قليل رأوا خيام قبيلة "قَايِـي"، وعندما وصلوا إلى المخيم، رأوا "أَدَبَالِـي (*Edebâli*)"[١٧] جالسًـا مـع تلاميـذه، كان أَدَبَالِـي أحـد المقربين إلى والده؛ فكان الأخير يحترمه كثيرًا، وفي الوقت نفسـه يُعدّ أَدَبَالِي أحد العلمـاء الأجلاء الذين يستشـيرهم والده قبـل أن يبادر إلى أيّ عمل، لكنّ عثمان كان لا يزال بعيدًا جدًّا عن إدراك عِظَم شأن أَدَبَالِي.

عندمـا اقتـرب عثمان منهم، أثـار الغبار حولهم، ولـم يعد يَرى شـيئًا، نهض أَدَبَالِي ونادى الفتى طويل القامة الممتطي الحصان:

- السـيادة لا تعنـي أن تُخيـف الأطفـال هكـذا بالحصـان والسـيف يا عثمان، وإنما السيادة هي التواضـع للمؤمن والتعالي على الكافر!

جذب عثمان اللجام محاولًا إيقاف فرسه، وأجاب وقد اختلط صوته بصهيل حصانه:

- أنا لست سيّد هذه العشيرة، إنما ابن سيّدها.

- أنا لا أقول إنّك سيد، إنما أقول كن كالسيّد؛ تحدّث مثل السيّد، فكّر مثل السيّد، تصرّف مثل السيّد...

- أتريد أن تعطيني درسًا بكلامك هذا أمام الجميع؟

- الدرس يُعطى للطالب فقط، أي: يُعطى لمن يطلب العلم والمعرفة، لا يُعطى لمن يتظاهرون بشجاعة زائفة على ظهور الخيل.

قال عثمان:

- انتبه، مَن أنت لتتدخّل في شؤوني؟

وجعـل فرسـه يعـدو علـى الشـيخ أَدَبَالِي، وبـدأ يطوف حولـه، كان الحصان يصهل، ويثير الغبار حوله، وقف أَدَبَالِي في مكانه دون أن يتحرك، أما عثمان فكان يدور حوله بحصانه، وصاح مَن حوله:

- ماذا تفعل يا عثمان؟!

اشـتدّت ردود الأفعال وصيحات الناس، وانصرف أَدَبَالِي من المكان بهدوء دون أن يقول شيئًا، كان عثمان يحدث نفسه: "كنت أظنّ أنّ أَدَبَالِي رجـل ذو قيمة، إنّه خـاف منّي، فليدرك عاقبة العبث مـع عثمان الأسـمر، والآن سيتحدث عني الجميـع" وبدأ يخاطب الملتفّين حوله:

- أرأيتم ماذا فعلتُ بأَدَبَالِي؟ ليس بمقدور أحد أن يُلقن عثمان الأسمر درسًـا، ولتعلموا أن اسـمي عثمان الأسـمر، أنا عثمان، لا يمكن لأحد أن يعبث معي.

كان عثمـان يأمـل أن يبـارك لـه المحيطون بـه ويقولـون: "مرحى... عِـش..." ويربّتـون على ظهره، لكنّ الجميـع سـرعان مـا أطرقوا وتفرّقوا فـي هـدوء، لم يسـتطـع عثمـان أن يجد تفسـيرًا لهـذا؛ لم يعجـب الناس ما فعله وأظهروا استياءهم وغادروا المكان، ظلّ عثمان وحيدًا في الميدان مـع حصانه، كان يشـعر للمرة الأولى في حياته بوحدة شـديدة وبأنّه ذليل ومثير للضحك.

رغـم أنّـه أطفأ كبرياء أَدَبَالِي، وجعله يعـرف قدر عثمان، وأثبت كيف يكـون الشـجاع، لـم يبقَ أحد حولـه، وبدأ يشـعر للمرّة الأولـى بالخجل ممّا فعله.

فـي أثنـاء عودته إلـى الخيمـة كان أذان المغرب تردد أصـداؤه، وقد أقام أَرْطُغْرُولْ غَازِي وأصدقاؤه الصلاة، أسرع عثمان وانضمّ إلى صفوف المصليـن، وكان والـده يؤمهـم في الصلاة منذ مـدّة، وكان عثمان أو أحد أخويـه سَـارُوبَاتُو أو كُونـْدُوزْ أَلْـب يقوم برفـع الأذان، أمـا الآن فقد تقدّم والـده فـي السـن كثيرًا؛ لذلـك صلّى آقْچَـه قُوجَه بالناس بـدلًا منه، وفي عقب الصلاة كانت تُتلى بعض من آي القرآن الكريم، ويشرح الإمام هذه الآيات، نظر آقْچَه قُوجَه إلى أَرْطُغْرُولْ غَازِي قبل أن يبدأ الحديث، وقال:

- سيدي، لا يليق بنا التحدث بين أيديكم.

فرد أَرْطُغْرُولْ غَازِي عليه قائلًا:

- ليس للعلم سيّد أو مقام؛ على الجميع أن يُنصتوا إلى أُولِي العلم، تفضّل كلنا آذان صاغية لما تقول.

تلا آقْچه قُوجَه آية من القرآن، ثمّ بدأ يفسّرها:

- يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. (سُورَةُ الحَجِّ : ٢٢/١١).

ثمّ قال:

-هناك حكاية سمعتها كثيرًا من أجدادنا: معظم الجنود كانوا يذهبون إلى الحرب من أجل إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله والحفاظ على شرف الوطن، لكنّ فئة قليلة منهم كانت تدخل الحرب للحصول على منفعة وغنائم وكسب شهرة، صحيح أنّهم كانوا يشاركون في الحرب، لكنّهم كانوا لا يتقدّمون الصفوف حيث القتال حامي الوطيس، بل يقفون خلف الصفوف وينزوون في أطرافها فإذا رأوا الخطر مُحَدِّقًا فرّوا مولين الأدبار؛ وإذا رأوا النصر يلوح في الأفق، برزوا من مكامنهم يتسابقون فيما بينهم لجمع الغنائم.

وهؤلاء هم أخطر أنواع الجنود في أيّ جيش؛ لأنّهم يدخلون الوهن والضعف إلى نفوس الجنود الآخرين ويعرّضون الجيش للخطر بسبب خوفهم وهروبهم يوم الزحف، وهذه الآية تتحدّث عن هؤلاء الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، حفظ الله عشيرة "قَايِي" من هذا النوع من الناس.

وردّ الجميع بصوت واحد:

- آمين!

تفرّق الجميع بعد الصلاة، واستعدّوا لتناول العشاء، فبُسطت مائدة طويلة، ووضعت الصواني، كانت المائدة هيّنة جدًّا، والطعام عبارة عن برغل باللحم واللبن الرائب، لم يكن أَرْطُغْرُولْ غَازِي يحبّ أن تكون الأطعمة متنوعة أو أن ينهض أحد عن المائدة قبل الانتهاء من تناول طعامه؛ فكان عثمان وإخوته الكبار لا يستطيعون النهوض قبل الانتهاء من تناول الطعام سواء أعجبهم أم لم يعجبهم.

بعد أن جلس أَرْطُغْرُولْ غَازِي إلى المائدة، جلس من بعده أبناؤه، كان الجميع ينتظره أن يبدأ الأكل؛ إذ كان سَبْقُ كبير العائلة يُعَدّ وقاحة شديدة لدى العثمانيين.

كان من عادة أَرْطُغْرُولْ غَازِي أثناء الطعام أن يسأل عن أحوال أبنائه، ويبدي اهتمامًا بهم، في البداية سأل عن أحوال كُونْدُوزْ، ثمّ تحدّث مع سَاوْجِي، وعندما انتظر عثمان دوره، تجاهله والده؛ حدّث عثمان نفسه قائلًا: "تُرى ماذا حدث؟" كأن والده قد انزعج من شيء ما، لكن ما الشيء الذي أزعجه يا تُرى؟

بعد الانتهاء من تناول الطعام تفرّق الجميع وهم يردّدون دعاء الطعام، دعا أَرْطُغْرُولْ غَازِي ابنه عثمان:

- عثمان، ابقَ هنا، أريد أن أتحدّث معك.

كانت المقابلة الخاصّة علامة على اقتراف الخطأ؛ فأدرك عثمان أنّه أخطأ، أطال أَرْطُغْرُولْ غَازِي النظر إلى نجله الشابّ من فوق الأريكة، وكان عثمان ينتظر مطرقًا، بدّدت كلمات عثمان الصمت:

- تفضّل يا أبي!

- عثمـان، تعلم أنّني أحبك أنت وإخوتك كثيرًا، لكنّني سـمعتُ أنّك قصرتَ اليوم تقصيرًا شـديدًا في احترام الشيخ أَدَبَالِي، لقد جعلتَ الفرس يعدو عليه.

سكت عثمان، ولم يستطـع أن يرد.

- الخطـأ ليـس خطؤك وإنما خطئي أنا يا عثمان، لو أحسـنت تربيتك لعرفت كيف تتحدّث مـع الكبار، خاصّة علماء الدين الأجلّاء مثل أَدَبَالِي، وكيف تتصرّف معهم.

- أبي، إذا كان ثمّة خطأ، فليس منك، بل منّي.

- لديّ طلب منك يا عثمان، اجعل الفرس يعدو عليّ، ولو شئت أيضًا ضعنـي في كيس كبير مثل المغول، وألقني أمام الخيل إذا شـئتَ، تصرّف معي تصرّفات وقحة؛ لكن حذارِ أن تقول شيئًا قبيحًا لأَدَبَالِي مرّة أخرى!

أطرق عثمان خجلًا، واحمّر وجهه.

- كيف تقول هذا يا أبي؟

- اعلم يا بُني، أنّ الشـيخ أَدَبَالِي هو الدعامة الأساسـيّة لقبيلتنا، وهو زعيمها الروحيّ، واعلم أيضًا أنّ الشيوخ والعلماء نور، وهم مرشدو الأمّة كلّهـا فـي الطُّرُق المظلمـة، يمكنك أن تسـيء إليّ، لكن حذارِ أن تسـيء إلـى الشـيخ أَدَبَالِـي وأمثاله، فإنه النور الذي يرشـدنا الطريـق، ولا يمكن أن يشـوب الكـذب كلامه ألبتّة، فمـا يقوله كلّه صـدق، إنّ تقديره للأمور لا يخطئ، عارِضْني ولا تعارضه، إذا عارضتني فسأحزن وأنزعج، لكن إذا عارضتَـه، فلن تنظر إليك عيناي، وإذا نظرت إليك فلن تراك، كلماتي هذه

ليست من أجل أَدَبَالِي، وإنّما من أجلك أنت -يا ولدي العزيز- لأنّ أَدَبَالِي صدره رحب؛ فلا مكان فيه لاستياء أو امتعاض أو بُغض، عُدّ كلامي هذا وصيتي لك!

- لكن يا أبي...

- من الآن فصاعدًا لا أريد أن أسمع منك شيئًا، إليك عنّي.

ضاق صدر عثمان لهذه الكلمات، وكان يفكّر قائلًا: "من أين ظهر لي أَدَبَالِي هذا؟".

خرج وأخذ يتجوّل، كان من عادة شباب العشيرة بعد الطعام أن يشعلوا النار في الخارج، ويجلسوا حولها يتسامرون إلى أن تحين صلاة العشاء، ذهب عثمان أيضًا ليتحدّث مع أصدقائه، فقطع الجالسون حديثهم عندما رأوه قادمًا، لم يستطع عثمان أن يفسّر هذا التصرّف في البداية:

- ماذا حدث، لماذا صمتم عندما رأيتموني؟ لماذا لا تتحدّثون؟

أعاد عثمان سؤاله عندما لم يتفوّه أحد منهم بكِلمة:

- إنني أكلمكم، أم أنكم قد أصابكم الصمم! لماذا لا تتحدثون؟

نهض أحدهم وقال لعثمان بأسلوب حاد:

- نحن لا نتحدّث مع مَن يجعلون الخيل تعدو على كبارنا؛ وأهل عشيرة "قَايِي" متمسكون بدينهم ولا يقبلون الوقاحة تجاه العلماء!

لم يستطع عثمان أن يتفوّه بشيء، وذهب إلى الصخور، وبدأ يتأمّل السماء، كانت النجوم كأنّها حبّات لؤلؤ تناثرت على فراش شديد السواد، وكانت تضفي على الليل بهجة وتصيب العين بحَيرة، كأنّ المجرّة قد صارت طريقًا يمتدّ إلى ما لا نهاية، شاهد السماء طويلًا، وشاهد

النجوم المتناثرة تنسكب من كيس لؤلؤ على الظلام، ثمّ نظر فرأى كأنّ كلّ شيء حوله استخفى في بحر حالك السواد، لم يكن يظهر إنسان ولا خيل ولا غنم، وكأنّ كلّ شيء قد استخفى في أعماق هذا البحر.

أدرك عثمان خطأه، وقال لنفسه: "لقد ارتكبتُ خطأ، نعم إنّني ارتكبتُ خطأ جسيمًا"، إن لم تشرق الشمس واستمرّ هذا الظلام، فإن أولئك الذين يأتوننا بالنور سيصبحون زعماءنا، ويُنيرون طريقنا، بدأ يفهم كلام والده أفضل، وكلّما حدّقت عيناه في أعماق الظلام، فكّر فيما قاله ثانية: "إنّ الشيوخ والعلماء نور، وهم مرشدو الأمّة كلّها في الظلمات"، النور يولد مع الشمس عند ميلاد كلّ يوم، أما ظلمة الروح فيبدّدها النورانيّون.

بدأ أذان العشاء يأتي من بعيد، لكنّه كان يستحيي من الذهاب إلى الصلاة مع الناس، وقال في نفسه: "إنني لن أتحمّل إذا اتخذ الجميع موقفًا تجاهي مرة ثانية"، استمرّ صدى ما قاله والده يتردّد في أذنيه: "أَدَبَالِي الدعامة الأساسيّة لقبيلتنا، وزعيمها الروحيّ، إنّ الشيوخ والعلماء نور، وهم مرشدو الأمّة كلّها في الطرق المظلمة؛ يمكنك أن تسيء إليّ، لكن حذارِ أن تسيء إلى الشيخ أَدَبَالِي".

ثمّ فكّر في الشيخ أَدَبَالِي، لقد جعل الفرس يعدو على العالِم الذي لم يقصّر والده في حقّه لحظة، وتظاهر نحوه بالشجاعة، غير أنّ الرجل المسكين كم كان جميلًا ما قاله: "إنّ السيادة لا تعني أن تُخيف بعض الأطفال هكذا بالحصان والسيف، إنما السيادة التواضع للمؤمن والتعالي على الكافر".

وبينما كان يفكر قائلًا: "لكنّني لست سيّدًا، لماذا قال لي هذا؟" تبادرت إلى ذهنه الكلمات الأخرى لأَدَبَالِي: "إنّني أقول لك: كن كالسيّد، تحدّث مثل السيّد، فكّر مثل السيّد، تصرّف مثل السيّد".

كُن كالسيد

"إنّما السيادة أن تتصرّف مثل السيّد..." بدأ عثمان يحلّ سرّ هذه الكلمات رويدًا رويدًا، في البداية فكّر في حاله قائلًا: "إنّني أخيف مَن حولي دائمًا بفرسي وسيفي ومعصمي، غير أنّ الناس يحترمونني لا لأنّهم يخافون من سيفي، أو لأنّني أطرح مَن يواجهني أرضًا في المصارعة، بل لأنّني ابن السيّد أَرْطُغْرُولْ، هذا يعني أنّ الناس يحترمونني احترامًا لوالدي؛ إنّني أصرخ في وجه الناس بلا خوف ولا وَجل إلا أنّي لا أؤثّر في نفوسهم، ولا أستطيع أن أسيطر على غضبي، فعندما أغضب أمسك بمقبض سيفي؛ وذات يوم قال رجل عالِم حديثًا جميلًا عن الرسول ﷺ يقول: "ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"، فصرختُ في الصوفيّ عندما سمعت منه هذا قائلًا: "لستُ بحالٍ تسمح لي بأن أتعلّم الدين والإيمان منك لكنّه كم كان محقًّا، فأنا أسيرٌ لقوتي وكبريائي ونفسي، وقد كنتُ أظنّ نفسي حرًّا دائمًا، فإذا بحريتي أسيرة نفسي؛ واحسرتاه عليّ، لقد أفسدتُ نفسي وأفسدتُ كل شيء".

أفاق برهة، وبدأ يفكر بصوت قائلًا: "جاءت قبيلة "قَايِي" من وسط آسيا إلى هنا، وقد حان وقت إنشاء الدولة، ونشر كلمة الإسلام في كلّ ديار الروم، غير أنّني مثل طفل مشاكس، أتظاهر بالشجاعة للذين يريدون أن يشغلوني عن لهوي وألعابي، يجب الرجوع عن هذا الطريق بأسرع وقت ممكن!".

كان في الخامس عشر من الشهر نفسه، طلع البدر كصينيّة كبيرة من الجبل المقابل، وكان النور قد تسلل إلى نفسه من البدر ومن الأضواء المحيطة به، وكأن البدر أشاع الدفء بداخله.

وبينما ينزل من المرتفع الصخري سعيدًا جدًّا، إذ عاهد نفسه قائلًا: "لن أتكبر على أحد، لن أستخدم قوتي على قبيلتي وإنّما سأستخدمها على الأعداء، ولن أرفع يدي على أحد سوى الأعداء".

عندما وصل إلى عشيرته، قرّر أن يبادر إلى الشيخ أَدَبَالِي ليعتذر له، ويطلب عفوه، لكن لم يكن هذا أمرًا سهلًا أبدًا؛ إذ لم يكن يستطيع النظر إلى وجهه، وكان يفكّر كيف سيمثل بين يديه؟

في اليوم التالي، صحا جميع أهل العشيرة مع أذان الفجر، وقد اعتاد الناس ألا يناموا بعد صلاة الفجر، فالجميع يذهبون إلى أعمالهم.

بعد أن أدّى عثمان الصلاة مع الجماعة شرب حَساء الصباح مع أسرته، وبينما كانوا يتفرقون، إذ بأَرْطُغْرُولْ غَازِي ينادي عثمان:

- يا عثمان، ألن تصلح اليوم الأشياء التي كسرتها؟

أجاب متظاهرًا بعدم الفهم:

- وماذا كسرتُ يا أبي؟

- هل هذا سؤال يا بُنيّ؟ هل نسيتَ الخطأ الجسيم الذي ارتكبته تجاه الشيخ الجليل أَدَبَالِي؟

- إنّه...، ليس بعد يا أبي!

- ليس بعد! لماذا؟

- حتى وإن كنتُ أعرف خطئي، فلا أجرؤ على الذهاب إليه، إنّني في أشد الخجل منه.

- لا تقلق، فإن قلب أَدَبَالِي مثل البحر، بحر ما يدخله قذِرًا يخرج طاهرًا، إنّه لا يستاء منك، ما يهمّه أن تتعلّم من أخطائك.

- فهمتُ يا أبي.

- الآن اذهب إلى تكيّته بسرعة، بلِّغه سلامي واحترامي، واطلب عفوه.

- حسنًا يا أبي.

كان عثمان سيفعل ما قاله والده، إلا أنه انتابه شعور شديد بالخجل لا يمكن وصفه، رحل من "سُوغُوتْ" إلى "أَسْكِي شَهِيرْ (*Eskişehir*)"[١٨]، لا يدري كيف سيمثل بين يدي الشيخ؟ كان ينظر إلى حصانه ويحدّث نفسه قائلًا: "يا ليتني كنتُ حصانًا، ولم أكن في هذا الموقف، كيف أعتذر؟ وكيف أنال عفوه؟".

وصل في النهاية بعد رحلة استغرقت ساعتين إلى قرية "إِيتْ بُورْنُو (*İt Burnu*)" بالقرب من "أَسْكِي شَهِيرْ"، وقد بدت تكيّة الشيخ أَدَبَالِي من بعيد، وإذ به يضطرب، ويشعر بركبتيه ويديه ترتجفان، وكأنّه مريض شاحب لونه أصابته نوبة حمّى؛ يمسك لجام الحصان بصعوبة، وعندما وصل أمام التكيّة ترجّل.

استقبله تلاميذ أَدَبَالِي، ورحّبوا به، وأبلغ أحد التلاميذ أَدَبَالِي بمجيء عثمان بن أَرْطُغْرُولْ غَازِي، وفي حين كان عثمان بالخارج، أخبره أحد التلاميذ أنّ أَدَبَالِي في انتظاره.

شعر عثمان بضيق شديد وهو ذاهب إليه؛ فدعا الله قائلًا: "يا ربي، ساعدني"، مَن يعلم كم كان أَدَبَالِي سيوبّخه! ربّما يقوم بتصرّف ما أو

ربّما يطرده من حضرته، فكّر قائلًا: "مهما فعل، فإنّه محقّ، وإنّني أستحقّ هذا بل أكثر"، يجب أن يرضى كلّ مخطئ بنتيجة خطئه من البداية، هكذا توجّه لمقابلة الشيخ أَدَبَالِي بهذه الفِكَر.

كان أَدَبَالِي جالسًا على الأريكة وفي يده سُبْحة، وكان يقرأ شيئًا سرًّا، وعندما رأى عثمان رحّب به، وأشار إليه ليجلس.

- أهلًا وسهلًا أيّها السيّد.

- أهلًا بك يا أستاذي!

كان صوت عثمان يرتعش عندما قال: أهلًا بك، وكان يتلوّى كأنّما ابتلع سكّينًا حادًّا يقطِّع فؤاده وجوارحه، حاول التحدّث:

- أستاذي...

- تفضّل يا بُنيّ.

لم يستطع أن يجيب مجددًا، نظر أمامه، وبدأ يتحدّث مستجمعًا كامل شجاعته بعد برهة من الصمت.

- أستاذي لقد جئتُ أطلب عفوك.

- أستغفر الله يا بُنيّ.

- اعفُ عني يا أستاذي، لقد اقترفتُ خطأً كبيرًا تجاهكم.

- ما أجمل ما يقوله حضرة مولانا جلال الدين الرومي:

"لقد مضى الأمس يا عزيزي

فيجب أن نقول شيئًا جديدًا اليوم".

إنني أعيش اليوم يا بُني، وعليك أيضًا أن تعِيش اليوم، انسَ كراهية الأمس وحقده وعداوته، فليكن الشيء الوحيد الذي تتذكره عن الأمس حسنًا، هناك كثير من الأعمال يجب أن نقوم بها في هذه الحياة القصيرة، وليس هناك وقت لعملها؛ لذا يجب أن نتناسى أحداث الأمس.

تضاعف خجل عثمان، وكأنّه يشعر أن وجنتيه تشتعلان؛ إذ صارتا كالجمر، وفكر قائلًا في نفسه: "ليته يهينني، وليته يضربني، لو فعل فلن أشعر بالخجل هكذا"، لِمَ يفعل هذا؟! لقد أساء عثمان إليه أمام الجميع، لو كان عامله بالمثل ما كان ليصل إلى هذه الحال؛ إن سماحة الشيخ أَدَبَالِي كانت عقابًا أشدّ لعثمان، وعندما أراد عثمان أن يُقبِّل يده، لم يسمح له قائلًا:

- أستغفر الله يا بُني، مَن أنا لتقبّل يدي؟

- أستغفر الله يا أستاذي، بل مَن أنا لتحترمني هكذا؟

استمرّ حديث أَدَبَالِي مع عثمان ساعات، وعند العِشاء صلّى مَن في التكية جميعهم خلف أَدَبَالِي، واستمرّ حديثه مع عثمان بعد الصلاة، تحدّث عن أحداث التاريخ، وحكى باستفاضة كيف أنّ الدول المجيدة والممالك العظيمة جاء يوم عليها وتفتّتت وتبخّرت وتلاشت، فقال:

"عليك أن تغضب عند جهادك الكفّار، لكنّ غضبك حتى اليوم كان دائمًا على أصدقائك وإخوانك، لقد خاف منك الجميع فاجتنبوا شرّك.

يا عثمان الأسمر، يا ولدي الصغير، ما دام لديك الشجاعة والوفاء والعزم لن يستطيع أحد أن يلوي معصمك، لكنّ الرجولة والشجاعة لا تظهر فقط في المعصم وإنّما تظهر في الفؤاد والعشق، فإذا لم يكن

القلـب متعلقًـا بالله ﷻ وبرسـوله الحبيـب ﷺ لدرجة العشـق، فلن تتعمّق في داخلك ولن يختلف تأثيرك في نفسـك وفي نفوس الآخرين عن تأثير المـوج فـي الماء، كن دائمًا مشـدودًا مثـل قوس يا عثمـان...، مثل قوس مسـتعدّ لرمي سـهامه، حينئذ لن يمسَّـك أذى؛ وعندما ترى الخطر فعليك أن تقضـي عليـه قبـل فـوات الأوان، فإذا لـم يكن لديك ذاك الاسـتعداد، فلتعلـم أنّ كلّ شـخص وكلّ شـيء سـيصير عـدوًّا لـك، وإذا كانت الدنيا هي ميدان الجهاد، فليس لك حقّ الحياة أيضًا إذا لم يكن لديك اسـتعداد لتخطّي صعوبات تواجهك".

تعظيم القرآن الكريم

استمرّ حديث أَدَبَالِي وعثمان حتى منتصف الليل، وبعد انتهاء حديثهم استأذن عثمان من الشيخ أَدَبَالِي إلى غرفته، وعندما دخل الغرفة رأى سجّادة كبيرة باللونين الأحمر والأسود، وأريكتين جنبًا إلى جنب عليهما سجّاد أيضًا، وعند أطراف الأرائك الملاصقة للحائط وسائد من الحصير، وثلاثة قناديل على ثلاثة رفوف مثبتة في الحائط، وأمام تلك القناديل نقود سلجوقية، وقد تعجب عثمان منها.

بعد برهة حضر إلى الحجرة صوفيّ شابّ، وتحدّث إلى عثمان قائلًا:

- هل تطلب شيئًا يا سيدي؟

- لا، وشكرًا.

- حسنًا، تصبح على خير يا سيدي.

- انتظر...، مَن أنت؟

- أنا "دُورْسُونْ (*Dursun*)"[١٩]، أحد طلاب الشيخ أَدَبَالِي.

- إذًا دعني أسألك عن شيء يا دُورْسُونْ.

- تفضل يا سيدي.

- ما بال النقود أمام القناديل؟ أم أنكم تختبرون ضيوفكم هنا، أيسرقون أم لا؟

- حاشـا لله يا سـيدي، مَن نحن لنمتحن النـاس، إنّها إحدى العادات هنـا، نتـرك نقـودًا هنا، كـي لا نُخجِل مَـن يكون فـي ضائقـة ماليّة، وكي لا نجعل المعطي يتكبر؛ فالمحتاج يأخذ بقدر حاجته.

- وإذا أخذ الضيف النقود وذهب من غير حاجة؟

- لا أحـد هكـذا فـي تكيّتنا أو في بلادنا يا سـيدي، مـاذا يفعل الغنيّ بالمال الزائد؟

- ولِمَ لا؟ يأخذ المال، ويذهب ويصرفه.

- مَـن ذا الذي سـعد بالمال الحرام يا سـيدي؟ نعلـم أنّ المال الحرام النار أولى به.

- أنت محقّ، محقّ جدًّا.

- إذا لم يكن لديكم ما تأمرون به، فلتأذنوا لي.

- شكرًا، تفضل يا دُوزسُونْ.

خلـع عثمـان عمامتـه ووضعهـا جانبًـا، وكان على وشـك أن يخلـع ثيابـه ويضعها أيضًا إذ وقعت عيناه على المصحف الشـريف المعلّق على الحائـط، كان هـذا المصحـف في غِلاف مـن قطيفة قد بَلِـيَ في مواضـع متفرقة من أثر القراءة، مصحف تآكلت زوايا صفحاته من التقليب، أمسك عثمـان بالمصحـف، فقبّله ووضعه على جبينه، ثمّ بدأ يتلو ما تيسـر له من آيات القرآن الحكيم، قرأ وقرأ، آية تلو آية وسورة بعد أخرى.

عندمـا كان أذان الفجر يُرفـع في الخارج، جاء أَدَبَالِي لإيقاظ عثمان، فإذا به يراه جالسًا على الأرض وقد أسند رأسه إلى زاوية السرير، وعندما أدرك مجيء أَدَبَالِي وقف في الحال.

أَدَبَالِي:

- ألـم يعجبـك سـريرك يا بُني؟ لمـاذا لم تنـم على الفـراش؟ ولماذا جلست هكذا على الأرض الجافّة؟

- إنّه يا أستاذي...

- نعم...

- هـل يمكـن -يا أسـتاذي- أن نأوي إلى فراشـنا ونمـدّ أرجلنا وننام في حين أنّ المصحف الشريف كتاب الله تعالى معلّق هنا؟

تعجّـب أَدَبَالِـي فجـأة ممّـا سـمعه، وجـرى الدمـع في عينيـه، وقال في نفسـه: "أيّ تعظيم هذا لكتاب الله، وأيّ تبجيل أن ينتظر هنا سـاعات دون نـوم علـى الفراش حتـى الصبـاح، وأن يجلس علـى الأرض الجافّة وفي يده المصحف الشريف؟!".

أطال النظر إلى عثمان ودعا في نفسه لهذا الشابّ التقيّ: "ربِّ، اقسم لهذا السيّد وذريّته خدمة الإسلام الدين المبين، آمين".

التفت عثمان إلى أَدَبَالِي وقال:

- يا أسـتاذي، عندما كنت جالسًـا هنا قبل قليل شرد ذهني، وسمعت صوتًا بين النوم واليقظة.

- أيّ صوت يا بُنيّ؟

- سـمعتُ صوتًـا قادمًـا مـن بعيـد يقـول: "يا عثمـان، لقـد عظّمتَ واحترمـتَ كلام الله، وأظهـرتَ العـزّة، فليجعلـك الله أنـت وذريتك ومَن تبعك في الدارين أعزّاء إلى الأبد، وأجلّاء ومكرّمين".

استغرق أَدَبَالِي في الفِكَر صامتًا، كم كبِر عثمان في عينه! كأنّما فتح عثمان الصغير قلب أَدَبَالِي بتصرّفه هذا؛ أراد أَدَبَالِي أن يقول شيئًا ليعبّر عن تقديره، ففكّر أنّه حين يمدحه في وجهه الآن سيكون قد أضرّه أكبر ضرر، كان عثمان سينضج ويكتمل نموّه، وكان الحِصْرِم سيصير عنبًا، والعنب سيصير دَبْسًا، والدبس سيصير حلوى، وهكذا عثمان سيصبح سيّدًا، وستصبح ذريّته من بعده يحملون لواء الإسلام.

الرؤيا أوّل بشارة للدولة العليّة

صلّى أَدَبَالِي بهم صلاة الفجر، وبعد الصلاة خرج عثمان من المسجد وانتظر إعداد المائدة، وجلس جانبًا؛ إذ كانت الشمس في "أَشكِي شَهِيرْ" قد ألقت حمرتها على السحاب قبل أن تشرق، والسماء تموج بالألوان من الأحمر إلى الأصفر...؛ استيقظت للتوّ الأزهارُ والطيورُ والرياحُ، فهي خاملة، فالرياح تهبّ حينًا ثمّ تهدأ، والصوت الوحيد المسموع الصياح الممدود، والثُغاء، وكأنّ الطبيعة كلّها تستيقظ من جديد، وكأنّ عثمان يلاحظ المرّة الأولى جمال بدء يوم جديد، وكأنّ ميلاد هذا اليوم بشير بميلاد شيء جديد بداخله، فحينما كانت الشمس تتوهّج على الحشائش المكسوّة بالصقيع، كان هناك بريق يحيا في أعماق العالم الروحيّ لعثمان، لا بد أنّ جوانحه قد فاضت بشيء، وكان مولد هذا اليوم رسولًا لبعث جديد وبشرى جديدة.

جفل عثمان من نداء الأستاذ دُورسُونْ:

- سيدي، ننتظرك على المائدة.

- أنا آتٍ يا دُورسُونْ.

بعد الإفطار خرج أَدَبَالِي مع عثمان، وذهب الجميع إلى أعمالهم، منهم الراعي الجائل أبدًا دون توقف، ومنهم الفلاح العازق الحقل حتى المساء.

سأل أَدَبَالِي عثمان قائلًا:

- هل تعرف أكبر حرب يا عثمان؟

- أظنّها حروبًا خاضها أجدادنا على الحملات الصليبيّة.

- كلا...

- إذًا الحرب على الدولة البيزنطيّة، والاستيلاء على "بُورْصَة (*Bursa*)"[٢٠].

- سيأتي اليوم ويدمّرون الدولة البيزنطيّة، سيأتي يوم يستولون فيه على "بُورْصَة" والقسطنطينيّة أيضًا، لكن قبل تدمير الدولة البيزنطيّة وقبل الاستيلاء على القسطنطينيّة هناك عمل أصعب من تلك الأعمال يا عثمان.

- ما هو؟

- النفس يا عثمان، أي: مجاهدة كلّ شيء فيك يجرّك إلى السوء، رُوِيَ عن سيّدنا رسول ﷺ أنه قال عقب غزوة بدر: "رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"، ثمّ أوضح أنّ الجهاد الأكبر هو جهاد النفس؛ فالسيطرة على النفس عسيرة يا عثمان؛ إنّ السيطرة على جيش مكوّن من آلاف الأشخاص سهلة، أمّا السيطرة على النفس فشاقّة؛ وإنَّ فتح "بُورْصَة" ليسير إنْ كبحت جماح نفسك، فإنْ نجحت في هذا، فسترى فيما بعد كلّ شيء هيّنًا جدًّا بيديك.

غادر عثمان بعد أن قبّل يد الشيخ أَدَبَالِي، وفي الطريق كان يفكّر فيما قاله أَدَبَالِي: "السيطرة على النفس... الجهاد الأكبر... التغلب على النفس...".

تغيّرت تصرّفات عثمان؛ فعاد شخصًا آخر مختلفًا تمامًا، كان مهمومًا بالتغلّب على نفسه، وكان يدفن غضبه وفرحه في قلبه، ويسعى إلى تغيير أسلوبه مع الناس، ويقوم بتصرّفات تليق بسيّد، لم تكن يده تمسك السيف غضبًا، ولم يكن يتباهى أو يتكبّر على أحد.

شـهدت الأيـام الماضية نشـأة الحاكم ونضوجـه وتغلّبه على نفسـه، أمّا الآن فقد صار عثمان طالبًا ملازمًا لأَدَبَالِي.

في إحدى زياراته لأَدَبَالِي، وعندما كان يمرّ من أمام المنزل إلى الفناء، رأى الزحام أمام المنزل، وشاهد الناس يضعون الطعام من القدور الكبيرة إلى الأواني الفارغة، فسأل عثمان المريد الصوفيّ الذي يكنس الفناء:

- مَن هؤلاء؟

المريد الصوفيّ:

- يأمر شيخنا بتوزيـع الطعام بين الفقراء المجاورين يا سيّدي.

- هؤلاء الناس لا يشبهون الفقراء.

المريد الصوفي وهو يضحك:

- ليس هؤلاء هم الفقراء، بل هم مَن يساعدون في توزيـع الطعام.

- حسنًا، أين الفقراء؟

- إنّهـم في بيوتهم يا سـيدي، يقول شـيخنا: "الفقيـر الحقيقيّ يترفّـع عن مذلة السؤال"؛ لذا تُترك الأواني على أبوابهم.

أُعجـب عثمـان برقّـة أَدَبَالِي ولو فـي إطعام المسـاكين، وجرت على لسـانه هذه الكلمات: "يا لَه مِن قلب مرهف لا يسـمح ولو بإيذاء مشاعر المحتاجين!".

البشرى التي جاءت مع الرؤيا

ألقت السيّدة حليمة كرة صوف كانت بيدها، وذهبت إلى أَرْطُغْرُولْ غَازِي:

- ألم يَحِنْ بعد وقت عثمان يا سيّدي؟

- ماذا يا سيّدتي؟

- الفرح بزواجه! مضى زمن طويل منذ أن تزوّج إخوته الكبار، وجاء دوره الآن.

- هل هناك مَن تفكرين بها يا سيّدتي؟

- أجل يا سيّدي، رأيت مؤخرًا "مَلْحُونْ (*Malhun*)" ابنة الشيخ أَدَبَالِي، وقلت في نفسي إنّها مناسبة لابني عثمان.

- هل هناك فخر أكبر من مصاهرة شيخي أَدَبَالِي، لكن يجب علينا أن نأخذ رأي عثمان في هذا الأمر.

- لن يرفض عثمان ما توافق عليه يا سيّدي.

- وإن، فعليكِ أن تتحدّثي معه.

ولحظة خروج السيّدة حليمة من عند زوجها، أسرعت إلى عثمان، كانت أضواء القناديل المرتعشة تنير الخيمة المصنوعة من وبر الماعز، وكان عثمان يتلو ما تيسر له من آيات القرآن الحكيم، وكأنّما قد ألصق عينيه بالصفحات، وعندما سمع صوت أمّه رفع رأسه.

- أتأذن لي بالدخول يا ولدي؟

نهض عثمان من مكانه بعد أن أكمل الآية:

- تفضّلي يا أمي.

- أريد أن أتحدّث معك يا ولدي الشجاع، اجلس.

- كلّي آذان صاغية يا أمّي.

- حان وقت زواجك يا عثمان، ولقد تحدّثت مع والدك في هذا الشأن، إن لدى الشيخ أَدَبَالِي ابنة اسمها مَلْحُونْ، ولقد قرّرنا خطبتها لك، فما رأيك يا ولدي؟

- أمّي، إنني أوافق على ما ترونه مناسبًا.

- خيرٌ إن شاء الله.

- إن شاء الله يا أمّي.

استغرق عثمان في الفِكَر بعد أن غادرت أمّه، الزواج من ابنة الشيخ أَدَبَالِي، الزواج من ابنة إنسان عظيم بهذا القدر، مصاهرة إنسان من أهل القلب مثله، التقرّب من ذي فؤاد كبير مثله، حدَّث نفسه قائلًا: "أفي الدنيا الفانية شرف أكبر من هذا؟".

كانت مَلْحُونْ هي النظرة الباسمة لأَدَبَالِي، وانسياب الكلمات من لسانه، ونقشًا نقشه في قلب عثمان؛ هكذا باتت مَلْحُونْ حبًا ينمو في قلب عثمان، عَشِق عثمان مَلْحُونْ دون أن يراها، كان الحبّ يُعرَف في القلب، سواء رأت العين أو لم ترَ، إن أَدَبَالِي مثل صَدَفة فماذا يمكن أن تكون ابنته سوى درّة؟

أبلغ آقْچَه قُوجَه أَدَبَالِي الخبر، قالوا: "سنأتي لخطبة ابنتكم"، أمّا أَدَبَالِي فقد اعترض على هذا الزواج، قال: "أنا شخص فقير، وابنتي أيضًا لا تليق بسيّد"، بُهت عثمان أمام هذا الردّ المفاجئ، لكن ما باليد حيلة.

وذات يـوم جاء تجّار مِن "أَشـكِي شَـهِيز"، وعندمـا كان أحدُهم يُنزل أكياس القمح عن عربة الحصان، تحدّث إلى تاجر آخر قائلًا:

- أسمعتَ؟ إنّ سيد "أَشكِي شَهِيز" سيخطب ابنة الشيخ أَدَبَالِي!

- حقًّا، من أين سمعت؟

- الجميـع فـي "أَشـكِي شَـهِيز" يتحدّثـون عـن هـذا، وسـيذهبون إلى الخطبة مساء هذا الخميس.

- تُرى ما هدف سيّد "أَشكِي شَهِيز"؟

- ليس سوى دعم الشيخ أَدَبَالِي له لتوسيـع إمارته، وإلا فلماذا يتزوج الرجل الذي تجاوز الأربعين من عمره مرّة ثانية!

- أنت محقّ.

عندما سمـع عثمان هذا استشاط غضبًا، كان يجب أن يفعل شيئًا أولًا، يجب أن يعرقل خطبة سيّد "أَشكِي شَهِيز" لمَلْحُونْ مساء الخميس.

وفـي يـوم الخميـس أخـذ بعـض أصدقائـه، ونصـب كمينًـا بالقرب مـن قريـة إيتبورنـو، وهاجمـوا القادمين لخطبـة الفتاة عند المســاء، وكان هدفهم إخافتهم فقط، وقد نالوا مرادهم.

ووفقًا للأخبار التي بلغت عثمان: رفض أَدَبَالِي أيضًا أن يُنكِح مَلْحُونْ لسيّد "أَشكِي شَهِيز"، وعندما سمـع بذلك قال في نفسه: "خبر جيد".

كان عثمان يدفن حبّه في قلبه، ويحاول الاستفادة من علم أَدَبَالِي قدر المستطاع، واستمرّ في الذهاب إليه مجدّدًا وإن كان يحمّر وجهه خجلًا.

كان أَدَبَالِي يُشـكِّل بدروسـه حاكم المستقبل ونسلًا مجيدًا كما يُشكَّل العجين؛ إنّه ولي عهد وحاكم وقائد في المستقبل القريب.

فـي البدايـة تعلّم عثمان التواضـع، وعلـم أنّ التواضـع أولى علامات العظمة لدى العظماء، وتعلّم بعدئذ كبح جماح النفس، وتحمّل المسؤوليّة، وأن يكـون سـيّدًا، تعلّـم أيضًـا أنّـه يجـب أن يكون آخر شـخص يشـبع في عشيرته، وتعلّم أنّه يمكن أن تكون المصائب الملمّة بهم بسبب أخطاء الحكام، تعلّم أيضًا أن تكون ممتلكات الحاكم كلّها هي ما يرتديه، وكلّما تعلّم ازداد علمًا بجهله، وتعلّم أيضًا كيف يتغلّب الإنسان على ذاته.

يومًا ما اسـتمرّ حديثه مـع أَدَبَالِي حتـى منتصف الليل، تحدّث أَدَبَالِي عـن التاريخ، وعن سـبب هلاك الأقوام السـابقة، وانهيـار الدول القديمة، تحـدث عن الأمويّين والعباسـيّين والأيوبيّين والسـلاجقة، كانا يتناقشـان فـي مَـن أخطأ وأيـن وفيمَ كان خطـؤه، وكان عثمان يبـذل قصارى جهده للحصول على كلّ شيء وكأنّه فقير عثر على كنز في الطريق، كان مشغوفًا بأن يملأ عقله المتعطّش للمعرفة.

وتحدَّث أَدَبَالِي عن الحقد والعداوة قائلًا: "العداوة هي دودة تقرض قلـوب الناس والدول مـن الداخل، فالحاكم هو مَن يَحُول دون اسـتمرار العـداوة مـع الخصوم، باسـتثناء خصـم واحد، إنّـه النفس؛ فـإن العداوة الوحيدة التي يجب أن تسـتمرّ -إلى أن توافينا المنية- هي عداوة الإنسـان لنفسه".

انتهـى حديثهمـا في سـاعة متأخـرة من الليـل، وبعد مدّة بـدأ عثمان يـرى فـي حلمه الإشـارات الأولى لبشـرى كبيرة، ألا وهـي خروج هلال مـن حِجـر الشـيخ أَدَبَالِـي، وكبِـر الهـلال حتى صار بـدرًا، ثمّ اسـتخفى في صدر عثمان، ثمّ خرج من صدره شـجرة بلوط أخذت تكبر تدريجيًّا، وكلّمـا كبـرت اخضـرّت، وكلّمـا اخضـرّت امتـدّ ظـلال أغصانهـا حتى نهايـة الأفـق في القارات الثلاث، ثمّ انقسـمت الشـجرة إلى سـتّة أغصان

غطّت البحار واليابسة، وإذا بجبال القوقاز وطوروس وأطلس وهيموس قد صارت أعمدة لتدعيم هذه الشجرة، أمّا عند جذور الشجرة، فكان هناك أنهار كبيرة تتلاطم، وكانت دجلة والفرات والنيل وطونة تتدفّق وهي تقذف الزبد.

وقد بدت له الحقول المليئة بالزرع الممتدّ مساحات شاسعة، والقباب العالية، والأبراج الجميلة، والمدن الرائعة، وكان صوت الأذان المسموع من مآذن تلك المدن يمتزج مع تغريد البلابل وزقزقة الطيور، وإذا برياح عاصفة هبّت ونثرت أوراق الشجرة إلى أنحاء الدنيا كلّها.

تصبّب عثمان عرقًا من دهشته وانفعاله، واستيقظ فجأة من عظمة ما رأى، وقد شعر بالحزن لانتهاء الرؤيا، ثمّ انتظر استيقاظ أَدَبَالِي، فحكى له بالتفصيل ما رآه، كان أَدَبَالِي يصدّق عثمان وهو يهزّ رأسه بوجه مشرق باسم؛ هذا الفتى الذي لا يزال في العشرين من عمره أغرق أَدَبَالِي في عوالم مختلفة، وكان عثمان ينتظر ردّ شيخه أَدَبَالِي، صمت أَدَبَالِي برهة، وفكر محدّقًا في نقطة ما، ثمّ بدأ يتحدث دون أن يفسد ابتسامته:

- ولدي عثمان، أبشر، لقد أعطاك ربّ العالمين أنت وذريّتك السلطنة والحكم، بارك الله فيك وفي سلطنتك؛ سيؤسّس مَن سيأتون من ذريّتك دولة عظيمة تشمل حدودها القارات الثلاث الكبرى والبحار.

شعر عثمان بمشاعر تمزج بين الفرح والدهشة، يا له من شرف كبير! ويا لها من بشرى عظيمة! هذه إشارة وبشرى لإقامة دولة عظيمة، دولة سائدة على القارات الكبيرة والبحار المترامية الأطراف، دولة صاحبة أراضٍ خصبة، ومدن رائعة، ومآذن، وجوامع، وأناس سعداء، إنّها دولة حُلم...

- مَلْحُونْ...

خفق قلب عثمان، عندما سمع اسم مَلْحُونْ، تابع أَدَبَالِي:

- مَلْحُونْ أيضًا ستكون زوجتك من الآن.

ازدادت سعادة عثمان، وبعد عدّة أيّام ذهب أَرْطُغْرُولْ غَازِي والسيدة حليمة إلى أَدَبَالِي لطلب مَلْحُونْ، كان عثمان ينتظر في "سُوغُوتْ" عودة والديه بقلق شديد، عاد أَرْطُغْرُولْ غَازِي قرب الليل، وبشّرته والدته حليمة: "مبارك يا عثمان، أتمنى لكما السعادة في الدارين!".

تمّت خِطبتهما بعد عدّة أيّام، وأُقيم عُرسهما بعد عدّة شهور، وعَقد نكاحهما طُورْغُوتْ أحد طلاب أَدَبَالِي؛ عرس ساذج، وهدايا بسيطة هيّنة ربّما الشيء الوحيد الذي كان عظيمًا هو جمال مَلْحُونْ.

كانت مَلْحُونْ تجلس في المسجد بهدوء بجانب عثمان الذي لم يرفع عينه عن الأرض، وكانت تُؤَمّن على أدعية الأستاذ دُورْسُونْ، وبعد عقد القِران أُقيم موكب عرس كبير، كانت السيدة مَلْحُونْ تمتطي حصانًا، وكان عثمان أيضًا يقف بجانبها ممتطيًا حصانه آي إيشيغي، وكان أمامهما وخلفهما أكثر من ثلاثة آلاف فارس يتقدّمون تارة ويتراجعون تارة أخرى، يبدو الطريق من "أَسْكِي شَهِيرْ" إلى "سُوغُوتْ" وكأنه نهر خيل متدفق.

كانت مسؤولية الأسرة هي المسؤوليّة الأولى التي تحمّلها عثمان، وقد باعدت هذه السعادة بينه وبين طموحات الشباب، فهو من الآن صارت معه رفيقة حياته، رفيقة ستكون إلى جانبه دائمًا.

سيّد شابّ

فـي عام ١٢٨١م كان أَرْطُغْرُولْ غَازِي سـيد قبيلـة "قَايِي" يعيش أيامه الأخيرة، وقد تجاوز التسعين من عمره، وكان يفكّر في ثلاثة وتسعين عامًا مضت في ميادين القتال، وهو على ظهور الخيل، وتحت صليل السـيوف وأصوات التروس.

هاجروا آلاف الكيلو مترات، وتذكّر أنّه سقى حصانه في نهر "جَيْحُونْ" وكأنّ ذلـك حـدث بالأمس القريب، أمّا اليوم فهُم في "سُـوغُوتْ" وسـط الأناضول، قال في نفسه بعد هذه الذكريات: "شتان ما بينهما".

فالحيـاة بنظـره ليسـت إلا حجـر رحـى تطحـن الأعـوام والشـهور والأسـابيع والأيـام، قضـى أَرْطُغْرُولْ غَـازِي حياته في طـرق الهجرة بين "خُرَاسَـانْ (*Horasan*)"، و"مَـرْو (*Merv*)"، و"مَاهَـانْ (*Mahan*)"، و"كَنْجَـه (*Gence*)"، و"أَخْلَاطْ (*Ahlat*)"، و"أَرْضرُومْ (*Erzurum*)"، و"حلب"، و"أَضَنَه (*Adana*)"، و"قَرَجَه طَاغْ (*Karacadağ*)"، و"سُوغُوتْ".

بيد أنّ الرحيل الآن يختلف تمامًا عن رحلاته السابقة كلّها؛ فلن يكون معـه أهله وقبيلته خـلال رحلته الأخيرة؛ فهذا الرحيل سـيكون فيه وحيدًا تمامًا، لن يكون بجانبه حصانه، أو سـيفه، أو سـهامه، أو ترسـه؛ سـيرحل ومعه جسـده فقط وقطعة نسيج طولها متران ملفوفة على جسـده، ومعه أيضًا أعماله وخِدْمات قدّمها للإسلام...

لـن يبقـى أحد على وجـه الأرض، فالمـوت طريق يسـلكه الجميـع، وكما يموت العبيد والفقراء والمساكين يمـوت أيضًا الأباطرة البيزنطيّون وسلاطين السلاجقة والأمراء، والطيور، والأشجار، والأزهار، والحشرات، كلّ كائن حيّ تشـرق عليه الشـمس وتغيب سـيموت، كلّ سيموت ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام.

فـي حين كان أَرْطُغْرُولْ غَازِي مسـتغرقًا في هذه الفِكَر، سـمـع آيات مـن الذِّكْـر الحكيم تُتلى بجانبه، فقال في نفسـه: "يـا له من صوت رائـع! يـا لـه من صـوت بديـع!" كان القارئ يتلـو بصوت عذب آيـات القرآن المُنزل على النبيّ ﷺ هدًى للعالمين.

في لحظة توقفت فيها القراءة، قال بصوت خافت متعب:

- نادوا أبنائي.

جـاء كُونْـدُوزْ وعثمـان وسَـارُوبَاتُو سَـاوْجِي أبنـاء أَرْطُغْـرُولْ غَازِي في الحال إلى جانب أبيهم المضطجع على فراش الموت، ثم بدأ كلامه:

- أبنائـي، لقـد قضيت عمـري في ميادين الحرب والهجرة، سـأرحل إلـى العالـم الآخر هذه الأيام والله أعلم، لديَّ بعض النصائح لكم، امتثلوا دائمًا أمر الله، أَفْنوا حياتكم في طريق الغزو.

جال الدمع في أعين أبنائه، ثم واصل أَرْطُغْرُولْ غَازِي كلامه:

- لا تتخلّفـوا أبـدًا عن طريـق الغزو، فالدناءة شـأن الدنيء، وانصروا دائمًا المسكين والمظلوم، ولا تنسوا أنّ السير في طريق الحقّ صعب جدًّا، ومملوء بالمشقّة والتحدّيات...

وفـي أثناء الوصيته تتابع نَفَسـه، وشـعر بالإعياء وهـو يتكلم، فتوقف قليلًا ليلتقط أنفاسه ثمّ تابع:

- أبنائي، السيادة هي حمل الجبال على العاتق، لقد سمعنا من أجدادنا كثيـرًا عن حروبهم بعضهم مع بعـض؛ لقد تقاتل الأخ مع أخيه من أجل العرش، أمّا هذا القتال فلم يُسـرّ به إلا الأعداء، لا أريد أن تتقاتلوا هكذا، أو أن تجعلـوا قبيلتنـا يذبح بعضها بعضًـا؛ وصيّتي الأخيرة وطلبي الأخير منكم أن يكون عثمان سيّدًا من بعدي إذا وافقتم.

أجاب كُونْدُوزْ وسَارُوبَاتُو سَاوْجِي على طلب والدهم قائلين:

- طلبُك أمر يا أبانا، نحن نعترف أنّ عثمان سيّدُنا من الآن فصاعدًا.

وبعد عدّة أيّام انتقل أَرْطُغْرُولْ غَازِي إلى رحمة الله تعالى؛ فصلّى عليه الشيخ أَدَبَالِي، ودُفن أَرْطُغْرُولْ غَازِي في "سُوغُوتْ"، إنّه أَرْطُغْرُولْ غَازِي الذي قَدِم من قلب آسـيا الوسـطى إلى الأناضول، ها هو يُدفن في أرض الأناضـول، كأنّما يؤكّد على أنّها الوطـن الجديد، وهكذا وقـع على عاتق عثمان مسؤوليّة كالجبل وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

أرخى الليل سدوله على الخيمة الكبيرة في "سُوغُوتْ"، وقد التحفت الأماكـن كلّها الســواد، إلا أنّ ضوءًا مرتعشًـا كان ينبعث من خيمة السـيّد عثمان؛ إذ لـم تكتحل عينه إلا بالسهاد، وكان يشعر بثقل المسؤوليّة الملقاة على عاتقه، مسؤوليّة قبيلة كبيرة، وكان يدعو الله أن يوفقه:

"يا ربي، نوّر حياتي كلّها بنورك، وافتح عليّ بمعرفة الحقائق لأنشـر الإســلام فـي البلاد كلّها، اشـرح صدور عبادك جميعًا لهـذا الدين، اجعل سـيفي رايـة في طريق الدين، ومرشـدًا في طريق الحقّ عنـد القتال، ومُدَّنا بقـوة مـن عندك لمقاومة الكفّـار أعداء الدين، وابغتهم بمـا آتيتنا من قوة، اللهم استعملنا في الخير وارضَ عنا، آمين".

وفي الغد بدأ عثمان غازي يتجوّل في قبيلته، إنه سيّد القبيلة المهيب، طويـل القامـة، عريـض المنكبيـن، طويـل الذراعيـن، وكان جِذْعه أطول مـن سـاقيه؛ فكانت هيبته تزداد علـى ظهر الحصان، وهـذا المظهر يعطي مَن يراه من أصدقائه أمنًا، ومَن يراه من أعدائه خوفًا ورهبة.

ربّمـا كان عمـر الثالثـة والعشـرين يدلّ علـى الصبا والشـباب إلا أنّ عثمـان كان يجـب عليه أن ينضـج بأسـرع وقت، فعندما يتـرك لابنه الراية التي أعطاها له والده أَرْطُغْرُولْ غَازِي، يجب أن يشـعر بالاطمئنان أنّه قام بأعمال مفيدة لأُمّته.

ذهـب قصـدًا إلى والدتـه، كانت قد استلقت على فراشـها وقد ظهر عليهـا تعب الأعوام الماضية، وعندمـا رأت عثمان، أنار وجهها المتغضّن من الشيخوخة وتبسّمت.

انحنى عثمان على يد السيّدة حليمة قائلًا:

- كيف أنتِ يا أمي؟

مـا الذي لم تصنعه هاتـان اليدان، اليدان اللتان تمسـكان زمام الخيل فـي طُـرُق الهجرة الطويلة، اليـدان اللتان تحلبان الماعـز، وتصنعان اللبن الرائـب، وتعـدّان الطعام، اليـدان اللتان ترتّبان بيت سـيّدها، وتربّيان ثلاثة فتيان شجعان، وتوقظانهم لأعمالهم، واللتان أبلَتَا عمرًا من أجلهم.

عانقت الوالدة حليمة ابنها، وقبّلته، واشتمت رائحته، ثمّ رفعت رأسها ونظـرت لابنهـا، الذي لم يتجاوز طوله شـبرين عند طفولته، والذي كانت تحمله في قماط بالأمس القريب، وقد صار اليوم سـيّدًا، وتولى مسـؤوليّة القبيلة، قالت السيّدة حليمة:

- يـا بُنـيّ، أنت الآن سـيّد، يا عثمان الأسـمر، السـيّد هـو من يرتدي قميصًـا من نار، لا تخيب ظنّ مَن يحبّوننـا، ولا تجعلنا أضحوكة لأعدائنا يا عثمان الأسمر.

- نحن نسعى في طريق الحقّ، فلا يكن لديكِ أدنى شكّ في هذا، لكن لا نستطيع أن نعرف مصيرنا، فمشيئة الله نافذة في كلّ أمر.

وظـل بجانبها مـدّة، ثمّ عاد إلى خيمته، وطلب مـن أمّه قبل أن يغادر خيمتها الدعاء قائلًا:

- لا تحرمينا من دعائكِ يا أمّي!

بينمـا كان يسـتعد للذهـاب إلى الشـيخ أَدَبَالِي، إذ سـمـع صوته وهو يتحدث مـع الحراس بالخارج، كان يقول بصوت جهوريّ:

- نريد أن نزور سيدنا إذا سمح لنا.

فخرج عثمان بسرعة لمقابلة ضيفه الكبير أمام الباب:

- أستاذي، لماذا تجشّمتم العناء إلى هنا؟ كنتُ سآتي إليكم.

- السادة لا يذهبون إلى أناس مثلنا.

- أستغفر الله، تفضلوا.

دخل أَدَبَالِي الخيمة وَرَنَا عثمانَ طويلًا، كان أمامه صهره وسـيّد قبيلة "قَايِي" أيضًا، مَن يعرف فربّما سيصبح والد دولة عالميّة ستستمرّ في حكم العالم عدّة قرون، قال في نفسه:

"كم تغير عثمان! الشـابّ الأسمر الذي كان مشاغبًا بالأمس القريب، كيف أصبح يتصرف الآن بأدب تحت وطأة العبء الكبير الذي يتحمله".

أَدَبَالِي:

- سيدي، وصهري عثمان؛ بارك الله فيك وفي سيادتك وأهلك وعشيرتك، فتح الله عليك، ولتكن والد الأيتام، والمسؤول عن كلّ متبطّل، وحامي المساكين، فلا تحِد عن الحقّ والعدل في أعمالك كلّها.

يا بُنيّ، أنت سيد، من الآن فصاعدًا شأننا الغضب والاتهام والخطأ، وشأنك الحلم والتحمل والتسامح، فستكون من الآن أكبر معين لنا في عجزنا والقوةَ الرشيدة في ضعفنا، وستكون والدًا يطعم الجائعين، ويكسو المساكين، ستكون السيّد.

ولدي العزيز، اعلم أنّ العداوة لا تغفو ولا العدوّ، لا تخش ممّن يُمسِك بيده سيفًا من الأعداء، بل من عدوّ بين جَنْبَيك يغمد سيفه في جسدك، نفسك هي عدوّك الذي بين جنبيك؛ فعندما تتكبّر علِّمها التواضع، وعندما يتملكك الغضب علِّمها السكوت، وحينما تعتقد بأنّها تمتلك كلّ شيء، ذكِّرها بالموت، ذكِّرها بأنّك ليس عليك أن تكون سيد نفسك فحسب، وإنّما سيّد قبيلتك أيضًا.

يا بُنيّ، تعلّم الصبر، واعلم أنّ الأزهار لا تتفتّح إلا في الربيع، ولا تنسَ أيضًا أنّ حياة الدولة مرتبطة بحياة الناس، أَحيِ الناس تُحيِ دولتك.

يا بُنيّ، إنَّ حِملك ثقيل وشاقّ جدًّا؛ وأهل عشيرتك مرتبطون بك، ونجاحك مرهون بهم، أعانك الله، فسندعو لك دائمًا، مَن يعرف فربّما يأتي اليوم الذي تصبح فيه زعيمًا للدولة التي رأيتَها في الرؤيا، ربّما لا ترى تلك الأيام، لكن سيراها مَن يأتي من بعدك؛ ومن ثمَّ فإنني ومريدِيّ جميعًا تحتَ إِمْرتك، ولاتنسَ ما قلته لك.

- أستاذي، لا فُضّ فوك، أحتاج إلى دعائكم ووقوفكم بجانبي كما أحتاج إلى الماء والهواء، فأنا عثمان بن أَرْطُغْرُولْ سأعمل جاهدًا مخلصًا لإعلاء كلمة الله، وللجهاد في طريق الحقّ، ومن أجل دين الله، ومن أجل القيام بواجباتي المفروضة عليّ، أعدك بذلك، إنّني في حاجة ماسّة لدعائك يا شيخي.

ثمّ انصرف أَدَبَالِي بعد أن استأذن السيد عثمان، كانت زيارة قصيرة، لكنّها مهمّة جدًّا بما تحتويها من النصائح والعظة.

كان عثمان يستحضر في ذهنه كلمات أَدَبَالِي ويكرّرها، ويضع خططًا لتنفيذ ما قاله على أرض الواقع، قال أَدَبَالِي: "يا بُنيّ، تعلّم الصبر، فالأزهار لا تتفتح حتى يأتي الربيع"، ففكر قبل التعجل بالإقدام على القيام بأي عمل؛ ضع الخِطط، وتعلّم النظام كي لا تتهور ثمّ تندم.

الغارة الغاشية

سرعان ما انتشر نبأ تولي عثمان سيادة قبيلة "قَايِي"؛ فأسعد ذلك بعض الحكام البيزنطيّين المجاورين وبعض أمراء الروم والتركمان، وشعر بعضهم بالقلق.

كان السيد عثمان يستشير في كلّ عمل يقوم به بمقتضى المسؤوليّة التي يتولاها، وكان مدركًا أن لا بركة في عمل من دون شورى؛ فكان يستشير الشيخ أَدَبَالِي وقادته أيضًا قبل الإقدام على أيّ أمر، ثمّ يقول كلمته الأخيرة، فكانت أعماله تلقى قبول الأغلبيّة.

كان السيد عثمان يعدّ أَدَبَالِي تاجًا على رأسه؛ فكان يجد في كلماته كلّها فضائل ومعاني جمّة؛ إذ كانت هذه الفترة تهيئة لوضع أساسات دولة عالميّة، وكان أَدَبَالِي ينصح عثمان دائمًا في إدارة الدولة.

- يا بُني، حذارِ أن تثق في جندك وسلاحك وقوتك، أو أن تضاعف خصومك، لا تعادِ الجميع، وتخاطر بسيادتك، ليس هناك عدوّ صغير؛ فعدوّ تستهين به سينزل بك مصائب ستعجز حتى عن إدراكها، لا تنسَ -يا سيّدي- أن حشرة أذلّت النمرود.

ولا تُنبِّه العدوّ الغافل، اتركه غافلًا، لا تستفزّ أعداءك وتزيد عداوتهم؛ فإثارة العدوّ تولّد العداوة.

تذكّر دائمًا قائد أجدادنا السلاجقة العظيم "أَلْبْ أَرْسْلَانْ (*Alp Arslan*)"[21] ذا الضجة الكبيرة، وثِقْ في قوته، فكان يشاهد جيشه من هضبة عالية، عشرات الآلاف من الجنود يثيرون الغبار بمسيرتهم، جيش تتعالى صيحاته في خطواته كلّها؛ عندما رأى جيشه العظيم دار بخلده:

”أنّه لو وقعت تلك السماء لن تنزل إلى الأرض، فإنّها ستظلّ معلّقة على أطراف رماح فرساني“، وقد استشهد على يد قائد قلعة صغيرة.

بعد أن ترك السيد عثمان أَدَبَالِي جمع قادته للتشاور، وهم: "قُونُوزْ أَلْب (*Konur Alp*)"، و"طُورغُوتْ أَلْب (*Turgut Alp*)"، وعبد الرحمن غازي، وآقْچَه قُوجَه، وكُونْدُوزْ أَلْب، و"قَرَه مُرْسَلْ (*Kara Mürsel*)"، و"سَالْتُوقْ أَلْب (*Saltuk Alp*)"...

- أيّها القادة، إنّ رأيكم من الآن فصاعدًا يهمّني في كل شؤوننا، فماذا أنتم قائلون؟

قُونُوز أَلْب:

- أرى أن نعلن الحرب على الحكام البيزنطيّين إذا وافق سيدنا؛ فإنهم إذا سنحت لهم أقلّ فرصة لن يتوانوا عن إراقة الدماء من دون تفريق بين رجل وامرأة، وشابّ وكهل، فلنحاسبهم على جرائمهم.

لم يرُق لعثمان غازي كلام قُونُوز أَلْب.

- أنت تاج رأسي يا قُونُوزْ أَلْب، لكنّك لا تستطيع أن تقوم بتصرّف تعيبه، فكلّ إنسان يفعل ما تقتضيه أخلاقه.

تبسّم مَن كانوا بالحجرة لكلام عثمان غازي، كان قُونُوزْ أَلْب يستمع إلى السيد بانتباه، فتابع قائلًا:

- كان والدي ﷺ يقول: ”الدناءة شأن الدنيء“، نحن لن نكون هكذا مثلهم، لا نستطيع أن نعادي الحكام البيزنطيّين كلّهم، وعلينا ألا نزيد أعداءنا؛ فدعنا لا نعادِ من لا يعادينا، لكن إن أبوا إلا الحرب، فنحن لا نخشى إلا الله.

سَالْتُوقْ أَلْب:

- سيّدي، بِمَ تفكر إذًا تجاه الحكام البيزنطيّين؟

- سننتظر، وسننظّم جيشنا ولا نهاجم إلا من عادانا، وسنعيش مسالمين طالما لم يفسدوا السلام بيننا.

- أيأمر سيّدنا أن نتقرّب بالحبّ من الحكام البيزنطيّين؟

- الإخوة فقط هم مَن يستحقون الحبّ يا سَالْتُوقْ، أمّا الكفّار فنتعايش معهم، فعدم العداوة شيء، والصداقة شيء آخر؛ سنتعاون فقط مع مَن لا يظهرون لنا العداوة.

خرج طُوزْغُوث أَلْب عن صمته:

- سيدي، ألن يعيبنا باقي العشائر بسبب تعاوننا مع الكفّار؟

- طُوزْغُوث، ألا تتذكّر أنّ الرسول ﷺ عقد بعد هجرته إلى المدينة معاهدة مع اليهود، إن هدفنا الأساسيّ هو الجهاد، ونشر ديننا؛ فالتعاون لا يعني الكفر، هناك حكام بيزنطيّون قال عنهم والدي: "يمكنك الثقة بهم" مثل "مِيخَالْ (*Mihal*)"[٢٢] أمير "خَرْمَانْ قَايَا (*Harmankaya*)" لم يصبنا أذاه حتى الآن، بل إنه على العكس قام بأمور مفيدة كإبلاغه لنا عن كثير من هجمات الروم.

في هذه الأثناء دخل "أَيْقُوتْ أَلْب (*Aykut Alp*)" الخيمة مضطربًا:

- سيّدي، أتسمح لي؟

- تفضل، ماذا حدث يا أَيْقُوتْ؟

- سيّدي، حسبما أفادنا الرسل قبل قليل أنّ مِيخَالْ أمير "خَرْمَانْ قَايَا" في خطر، إنّ نِيقُولَا حاكم "إِينَاكُولْ (*Inegöl*)"، يخطّط للهجوم على "خَرْمَانْ قَايَا"، وقَتْل مِيخَالْ والاستيلاء على أراضيه.

- حسنًا، هل الرسول ثقة؟ ربّما يكون آيا نِيقُولَا يدبّر مؤامرة!

- أستبعد هذا يا سيدي، فأنا أعرف الرسول جيدًا منذ سنوات، لقد أتى لنا بأخبار صائبة جدًّا، إنّه موضع ثقة.

- متى يقومون بالهجوم؟

- غدًا ليلًا.

- قُونُوزْ أَلْب!

- أمرك سيّدي.

- هذه المسألة لك، خذ رجالك، وافعل ما يجب تجاه هذا الهجوم.

- أمرك سيّدي.

- والله معك.

- إن شاء الله.

في الليلة التالية، كان القمر يتوارى أحيانًا خلف السحب، وأحيانًا يظهر على استحياء، وعندئذ يضيء المكان بضوء خفيف، ثمّ تعود الليلة حالكة الظلام، لم يُسمع من بعيد سوى خرير الجدول، وصوت تصدره حشرات الزيز دون كلل.

أمر قُونُوزْ أَلْب بأن تُربَط الخيل بعيدًا في الخلف، وأن يتربّص رجاله السبعون كامنين عند مدخل "خَزْمَانْ قَايَا"، ثم وجه تعليماته الأخيرة:

- أيّها الشجعان، عندما يأتي جنود نِيقُولَا، يعترضهم من الأمام الجناح الأيمن، ويحيط بهم الجناح الأيسر، وعندئذٍ تطوقونهم في الحال، وحاولوا قدر الإمكان سحق العدوّ بالسهام، ستهجمون مع أول سهم أطلقه، وحذارِ أن يستخدم أحد سيفه أو سهمه قبل ذلك.

كانت كتيبة نِيقُولَا قادمة إلى "خَرْمَانْ قَايَا" في هدوء، وهم يحملون في أيديهم المشاعل، وكانت تلك الكتيبة مكونة -بحسب أصوات نعال الخيل- ممّا يزيد عن مائة أو مائة وخمسين شخصًا.

اقتربت الكتيبة شيئًا فشيئًا، حتى وصلت قرب أجمة اختبأ فيها قُونُوز أَلْب ورجاله.

وفجأة تبدد الغطاء الهادئ لِلّيل بصياح قُونُوز أَلْب.

- يا الله!

تحرك رجال قبيلة "قَايِي" مع سهم قُونُوز أَلْب، وأمطروا القوات البيزنطيّة بوابل من السهام؛ فكان صفير السهام يختلط بصراخ الجنود البيزنطيّين، فعلى إثر كلّ صفير صرخة تدوي، وتفرقت الكتيبة كلّها ما عدا عشرة فرسان فقط، أما باقي الفرسان فقد سارعوا بالفرار.

ولم يسمح قُونُوز أَلْب لأحد أن يتبعهم، قائلًا:

- اتركوهم يذهبوا، وليُخبروا أمير "إِينَاكُولْ" مع مَن يقاتلون، اربطوا الأسرى فإنّا عائدون.

عاد قُونُوز أَلْب إلى "سُوغُوتْ" من دون خسائر قبيل صلاة الفجر، ولم يكن نور القنديل المرتعش في خيمة عثمان غازي قد انطفأ بعدُ، كان السيد ينتظر رجاله المغيرين، وعندما سمع الأصوات، خرج على الفور.

- قُونُوز أَلْب!

- لبّيك سيّدي.

- بارك الله فيكم! ماذا فعلتم؟

- هجمنا على مَن جاؤوا مغيرين على "خَرْمَانْ قَايَا" -يا سيدي- وشتّتنا كتيبة أمير "إِينَاكُولْ".

- هل لديكم خسائر؟

- كلا يا سيدي، لدينا فقط بعض الجرحى.

- الحمد لله.

كان السيد عثمان يُكبِّر في طمأنينة وهو يؤدّي صلاة الفجر.

وبعد عدّة ساعات استدعى عثمان غازي القائد قُونُوزْ أَلْب، وقال له:

- قُونُوز، لا شكّ أنّكم أحضرتم أسرى من "خَرْمَانْ قَايَا".

- نعم، أحضرنا يا سيدي، لدينا أسيران.

- ابعث إلى آيا نِيقُولَا رسالة مع هذين الأسيرين، قل له: "عشيرة "قَايِي" تتّخذ مِيخَالْ أمير "خَرْمَانْ قَايَا" صديقًا، وأعداء أصدقائنا أعداؤنا أيضًا" فليعلم هذا، وليتصرّف على وفقه، وليكن واجبنا أن نُعرِّف العدوّ المتغطرس قدره.

أرسلوا هذه الرسالة إلى أمير "إِينَاكُولْ" مع الأسيرين.

وبعد مدّة قصيرة أبلغوا السيد عثمان أن مِيخَالْ أمير "خَرْمَانْ قَايَا" قد حضر لمقابلته، وكان مبتسمًا مشرق الوجه، يرتدي ثوبًا بنيًّا، ويحمل حول خصره سيفًا مستقيمًا، فعانق السيد عثمان بامتنان، وقال له بلغته العثمانية الركيكة:

- سيد عثمان، أظهرتَ معنى السيادة والشجاعة والوفاء، ولقد أتيتُ لأقدم لك الشكر على إنقاذك لنا من غارة أمس، فشكرًا جزيلًا.

تبسّم السيد عثمان قليلًا، وقال:

- الوفاء بالعهود من طبائعنا يا مِيخَالْ، فعندما نقول إنّنا سنفي، فلا بدّ أن نعطي الوفاء حقّه.

- سيدي، لدي أمنية لا أعلم هل يمكن أن تلبّيها؟

- ما هي؟

- اجعلني بين قادتك يا سيدي، ربّما أكون عونًا لكم.

- مِيخَالْ، لقد سمعت من والدي كثيرًا عن مساعداتك لنا، أما رغبتك هذه فيجب أن أناقشها مع رجالي، لا أستطيع أن أقول لك شيئًا من دون التشاور معهم.

اجتمع كبار عشيرة "قَايِي" مرّة ثانية للتشاور وبينهم كُونْدُوزْ أَلْب، والسيّد سَاوْجِي، وقُونُوزْ أَلْب، وغيرهم، لكن كان هناك شخص مختلف عنهم جميعًا، شخص مختلف في وقوفه وجلوسه، ورأسه الأصلع المتمايل بانفعال، وملابسه المتّسخة الدكناء، إنّه مِيخَالْ!

بدأ السيد عثمان كلامه متحدثًا عن هذا القائد المرتبك، قال مشيرًا بيده إلى مِيخَالْ:

- إنّ صديقًا قديمًا لوالدي يريد أن ينضمّ إلينا، فماذا يرى رجالي؟

بدأ الحديث عبد الرحمن غازي الأكبر سنًّا قائلًا:

- لقد قدَّم مِيخَالْ منذ البداية خدمات واضحة لقبيلة "قَايِي"، لا أعلم ماذا يعتقد إخواني، لكنّي أعتقد أنّه رأي مناسب.

أيّد الآخرون أيضًا كلام عبد الرحمن غازي، وفي أثناء قول السيد عثمان كلمته الأخيرة، تهلّل وجه مِيخَالْ الأمرد فرحًا.

- مِيخَالْ من الآن فصاعدًا هو أحد قادتنا.

وواصل السيّد عثمان حديثه وسط الأصوات المهنّئة:

- إخوانــي، لقــد زاد عداء آيا نِيقُولَا بعد غارة "خَرَمَـانْ قَايَا"؛ إنّه الآن منشغل بالاتّحاد مـع مَن حوله من الأمراء البيزنطيّين الآخرين، كي يسلبنا حقّنا في الحياة، فماذا ترون؟

طُورغُوتْ أَلْب:

- سـيّدي، إنّني ممّن يعرفون نِيقُولَا جيّدًا، لم ننسَ ماشـيةً وممتلكاتٍ فقدناهـا علـى يديـه؛ إنّه ثعبـان ينتظـر العدوّ فـي جحـره، وإذا كان هدفه الحصول على أراضينا، فسيهاجمنا آجلًا أم عاجلًا.

- في رأيك ماذا يجب أن نفعل؟

- أرى أن نهاجمـه نحن قبل أن يهاجمنا، فإذا هاجمناه فسـنحظى في الأكثر بشهادة نعدّها تفضلًا وإحسانًا من الله تعالى علينا، وسنكون قد نلنا إحدى الحسـنيَين، أما إذا انتظرنا هجومهم، فإنّنا نُعرِّض أطفالنا ونسـاءنا، أي: عشيرتنا كلّها للخطر والهلاك.

- معـك حـقّ يا أخي، فـي رأيي أنّ كلام طُورغُـوتْ أَلْب مقبول، فما رأيكم؟

صدَّق المستشـارون علـى كلام طُورغُـوتْ أَلْب وقال السـيّد الكلمة الأخيرة:

- إذًا سـنقوم بحملة على "إِينَاكُولْ" بعد خمسـة أيام، نعوذ بالله من أن يخزينا!

تفرّق المجتمعون وهم يرددون:

- آمين.

الأفئدة تحترق

لم يكن لعشيرة "قَايِي" جيش منظّم، وقد أنشؤوا وحدة عسكريّة تتكون من ثلاثمائة فارس من الشجعان، خرج جيش عشيرة "قَايِي" إلى الحملة نحو "إِينَاكُولْ" يتقدّمهم السيّد عثمان، وبقيت أزواجهم خلفهم يدعون لهم بالنصر على أعدائهم.

علم نِيقُولَا بقدوم السيد عثمان إلى "إِينَاكُولْ" فنصب له كمينًا، وفي حين كانت شمس الصباح ترتفع في السماء، حوصر جيش "قَايِي" بالقرب من قرية "أَرْمَنِيبَلِي (*Ermenibeli*)"، ولحظة أن همس السيد عثمان:

- هناك فخ!

بدأت السهام تتساقط على أفراد قبيلة "قَايِي" كالمطر، وكان جنود "قَايِي" يسقطون عن صهوات جيادهم واحدًا تلو الآخر مثل أوراق الخريف، واستشهد كثير منهم، إذ كانت السهام تأتي من الجهات كلّها.

بدأ السيد عثمان يدعو رجاله إلى رباطة الجأش بعد أن أصابهم الفزع.

- رجالي الشجعان، لا تفزعوا! طُورْغُوتْ أَلْب!

- لبّيك يا سيدي.

- سنهاجم الجناح الأيمن.

- عبد الرحمن غازي!

- حسنًا يا سيدي.

- أخي كُونْدُوز!

- حسنًا سيدي.

- قُونُوز أَلْب!

- فهمتُ يا سيدي.

- هيّا، يا الله!

هجـم قسـم من جيش "قَايِـي" على الجانب الأيمن مـن طوق يضربه العـدوّ حولهم، وهم يـرددون (الله! الله!)، إلا أنّ القوات البيزنطيّة أظهرت مقاومـة عنيفـة لهـذه الهجمـات، فلم يكن من السـهل ألبتّـة اختراق ذلك الطوق؛ فسحب السيّد عثمان جيشه، ثمّ عاود الهجوم مجددًا، حينئذ خُرق الطوق بعد استشهاد كثير من الجنود، ونجح أفراد "قَايِي" في التخلّص من الكمين، إلا أنّهم خلّفوا عشـرات الشـهداء في ميدان المعركة، ولـم يجرؤ نِيقُولَا على تعقّب جنود "قَايِي".

انتظـر جيش عشـيرة "قَايِـي" وقتًا في الغابة، لم ينبـس أحد بكلمة، لم يكـن هناك صوت سـوى صهيل الخيـل، يا له من ترقّـب حزين، وموقف أليم! قال السيد عثمان بصوت حزين:

- أعزائي، إخواني، إنّما النصر والهزيمة قدر الله، ونحن نؤدي واجبنا فقـط؛ حاشـا لله أن نعصيـه بقولنا "لِمَ حدث هذا؟" هيـا، فلنذهب ونأخذ شهداءنا من هناك لندفنهم.

عندما عادوا إلى "أَزْمَنِيبَلِي"، رأوا مشهدًا مروعًا جدًّا؛ عشرات الشهداء بعضهـم قد تكوّم علـى الأرض منكبًّا على وجهـه، وبعضهم الآخر تكوّم وقد بُترت يده، لكنّهم جميعًا كانوا يمسـكون سـيوفهم بأيديهم، منهم مَن أُصيب بسهم في ظهره، ومنهم مَن أُصيب بسيف.

لم يستطع عبد الرحمن غازي تحمّل ما رآه:

- جميعهم أصيبوا من ظهورهم، يا للهول!

في هذه الأثناء، اقترب أَيْقُوتْ أَلْب من السيد عثمان، وانحنى على أذنه.

- سيدي، سلّمنا الله جميعًا.

- سلّم الله المسلمين يا أَيْقُوتْ.

- سيدي، أريد أن أقول شيئًا.

- تفضل.

- لا أعرف كيف أقولها يا سيدي، "بَايْقُوجَه (*Baykoca*)" ابن أخيكم.

أدرك السيد عثمان الأمر، لقد سقط بَايْقُوجَه ابن أخيه الأكبر سَاوْجِي شهيدًا، كان بَايْقُوجَه صبيًا في الرابعة عشرة من عمره لم يطِرَّ شاربه بعد، كان قلب بَايْقُوجَه أقوى من قبضته، انضمّ إلى الجيش عندما سمع عن القيام بحملة على "إِينَاكُولْ"، وفي هذا الكمين الدمويّ استشهد في زهرة شبابه، كيف سيتمّ إخبار السيد سَاوْجِي باستشهاد بَايْقُوجَه؟

نظر عثمان غازي إلى أخيه سَارُوبَاتُو سَاوْجِي من بعيد، وقد كان السيّد سَاوْجِي مرتابًا في الأمر؛ إذ كان يبحث عن ابنه الكبير بين الشهداء، فذهب عثمان غازي إلى السيّد سَاوْجِي بهدوء.

لم يستطع أن يقول سوى: "أخي الأكبر" واحتضن أخاه، كان السيّد سَاوْجِي قد أدرك ما حدث، فحاول أن يتمالك نفسه وهو يعضّ على شفتيه، وقد نزل الخبر على فؤاده كالجمر، خبر كأنه حديدة ملتهبة تكوي فؤاده، خبر جثم على صدره كالجبل.

في هذه الأثناء، قَدِمَ كُونْدُوزْ أَلْب، فعانق الإخوة الثلاثة بعضهم بعضًا بقوة؛ وصمت الجميع وصمت كلّ شيء، صمتت الطبيعة كلّها برهة، وتحدّث البكاء فقط، واحتضن بعضهم بعضًا بشدّة، كأنما لن ينفصلوا أبدًا، ثمّ تردّد صوت السيد سَاوْجِي المبلّل بدموعه في الأرجاء كلّها، صوت كأنما يخرق الآذان، صدى يصل إلى السحاب في السماء:

- فليكن بَايْقُوجَه وألف بَايْقُوجَه فداء للإسلام الدين الحقّ!

احتضن السيد عثمان ابن أخيه الشهيد، ووضعه مع الشهداء الآخرين على خيلهم، واصطحبهم إلى القرب من نُزل حمزة بك، فأرقدوا الشهداء جميعًا بملابسهم على رابية تشبه منضدة يوضع عليها النعش، وصلّوا صلاة الجنازة، ثمّ توجّهوا نحو "سُوغُوتْ".

وفي "سُوغُوتْ" كانت النساء ينتظرن خبر انتصار أزواجهنّ وإخوتهنّ وأبنائهنّ، سُمع صوت طفل يقول:

- إنّهم قادمون!

خرج الناس من خيامهم لاستقبالهم، وهم ينتظرون أن يسمعوا: "لقد انتصرنا!"، وكانت السيدة مَلْحُونْ أيضًا تنتظر زوجها، فرأت في وجه السيّد عثمان حزنًا، وفي وقفته أسى، عندئذ أدركت أنّ أمرًا سيّئًا قد وقع.

كان السيد سَاوْجِي يأتي في الخلف ممسكًا بإحدى يديه لجامَ فرسه، وبيده الأخرى لجام فرس ابنه الشهيد.

فرس بلا فارس، كانت عشيرة "قَايِي" تعرف جيّدًا ماذا يعني أن يأتي الخيل بلا فارس، وقفت السيّدة "مَهْلِيكَة (*Mehlika*)" زوجة السيد سَاوْجِي برهة أمام ما رأته، فأنّتْ "سُوغُوتْ" بألم أمّ فُجعت في ولدها، ألم سقط على فؤادها كجمرة ملتهبة؛ فحاولت أن تنادي زوجها علّها تكون قد أساءت الفهم.

- سَاوْجِي! أين بَايْقُوجَه؟

ترجل السيد سَاوْجِي، وذهب إلى زوجته، وأمسك يدها، وقال والدموع تسيل من عينيه:

- لقد أعطانا ربّ العالمين أمانة واستردّها منّا اليوم يا سيّدتي!

ثمّ انعقدت الكلمات في حلقه، ولم يستطع أن يتحدّث بأكثر من هذا.

تردّد صدى أنين السيّدة مَهْلِيكَة أولًا، ثمَ دوّى صوتها الذي مزّق الأفئدة.

كان السيد عثمان يسمع صوت زوجة أخيه، ولا يملك أن يفعل شيئًا، انقبض صدره، وجثم اليأس على قلبه، وقال في نفسه:

"هل ستُمنى العشيرة بالخسارة دائمًا بسببي؟".

وفي الربيع تتفتح الأزهار

تردّد في الجبال صوت فارس يعدو بفرسه من "سُوغُوتْ" إلى "أَسْكِي شَـهِيرْ"، كان ذلك الفارس هو السـيّد عثمان في طريقه إلى أستاذه أَدَبَالِي، وصل إليه في ساعة متأخرة من المساء، فوجده يقرأ كتابًا، انتظر في صمت حتـى ينتهـي، ثم بدأ السـيد عثمـان الحديث، وحكى عـن هزيمتهم وعن استشـهاد ابن أخيه؛ اسـتمـع أَدَبَالِي إلى السـيد عثمـان طويلًا في صمت، ثمّ بدأ كلامه بصوته الأجش باعث الطمأنينة في القلوب:

- إنّ الأزهـار تتفتـح فـي الربيـع، إلا أنّ الربيع لا يأتـي بتفتح زهرة واحـدة، يجـب أن يتعلّـم السـيد الصبر، فاليـوم جاءت سـحابة وحجبت الشمس، لكنّ الشمس لا تستخفي خلف السحابة.

- الحـقّ ما قلت يا أسـتاذي، لكنّ هناك ألمًـا يعتصرني؛ أعلم أنّ هذه الهزيمة قد وقعت بسببي.

- اسـمـع يـا بُنيّ، لقـد وقعت غزوة أُحد في عهد الرسـول ﷺ، كانت أُحد غزوة عسـيرة، وكان هناك شـجاع في هذه الغزوة، إنّه أنس بن النضر ﷺ، أخـذ يقاتـل المشـركين حتى انقضّ عليـه العدوّ بقوته كلّهـا ثأرًا منه، فأصيـب ببضعـة وثمانين جرحًا ما بين ضربة بسـيف وطعنـة برمح ورمية بسـهم، ولم يتعرّف عليه أحد سـوى أخته بشـامة كانت في جسده، حينها فهم الصحابة أنّ الآية الثالثة والعشرين من سورة الأحزاب نزلت في أنس ومَن معه من الشهداء الآخرين؛ إذ تقول الآية:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾.

صمت السيد عثمان برهةً، ثمّ انحنى على يد أستاذه، لقد تلقّى الدرس من دون أن ينبس ببنت شفة بين يديه، ثمّ تردّدت في ذهنه الجملة الأخيرة من الآية: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾.

قال في نفسه: "نحن أيضًا ما بدّلنا عهدًا قطعناه".

عاد السيد عثمان إلى "سُوغُوتْ" قرب منتصف الليل، وجفا النوم عينيه، وفي صباح الغد كان أول ما فعله أن جمع قادته، وقال لهم:

- إخواني، إذا كان ثمّة أحد مسؤول عن الهزيمة التي تجرّعناها بالأمس، فإنّه أنا، فسامحوني، هذه الهزيمة يجب أن تشحذ همّتنا بدلًا من أن تثبّطنا، أدعو الله ألا تضيع دماء شهدائنا هباءً، علاوة على ذلك فقد جمعتكم هنا للتشاور حول ما سنفعله فيما بعد.

قال أَيْقُوتْ أَلْب:

- سيدي، إنّ نِيقُولَا الذي أعرفه سيتغطرس أكثر بسبب انتصاره هذا، وسيتصرّف بشكل أكثر وقاحة، وسيتخذ في معيّته الحكام البيزنطيّين الآخرين ليعتدي علينا، فيجب أن نجد حلًّا لهذا، هل وجد أحد الحلّ؟

مسح عبد الرحمن غازي على لحيته الكثّة، واعتدل في جِلسته قليلًا وبدأ الحديث:

- سيدي، إذا سألتموني، أقول: لنستولِ أولًا على تلك القلعة المسماة "قَرَاجَه حِصَارْ"، وإذا فعلنا هذا، فلن يستطيع نِيقُولَا أن يؤثر في الحكّام الآخرين؛ فالعدوّ كالكلب، عندما يعلم أنّه غير مهاب، يضع ذيله بين رجليه ويهرب، وإلا فإن شعر أنّه مهاب بدأ في إثارة القلق.

وافق أَيْقُوتْ أَلْب وقُونُوزْ أَلْب على هذا الرأي.

السيّد عثمان:

- اتّضحت المسـألة، إذًا نستولي على "قَرَاجَه حِصَارْ (*Karacahisar*)" أولًا. قُونُوزْ أَلْب! اتخذِ الاستعدادات اللازمة لهذا الأمر!

- أمرك يا سيّدي!

- أَيْقُوتْ، دبّر الإعاشة للعشيرة.

- حسنًا يا سيّدي.

- عبد الرحمن غازي! لنضـع معًا خُطَط الفتـح.

- كيفما تشاء يا سيّدي.

ارتفعت الشـمس على أعلى قمة في "سُـوغُوتْ" حينما جلس السـيّد عثمان مـع كُونْدُوزْ أَلْب تحت شجرة يناقشان كيفيّة الاستيلاء على "قَرَاجَه حِصَارْ"؛ كان السيّد عثمان يرسم بعصا في يده على التراب، وكان كُونْدُوزْ أَلْب يشاوره في بعض الأمور، وفجأة رفـع السيّد عثمان رأسه على صراخ فارس يعدو من بعيد بسرعة مثيرًا الغبار حوله، فقال السيد عثمان:

- هذا أحد الراصدين، ومجيئه لا يبشّر بالخير أبدًا.

- لا تقلق، سيكون خيرًا إن شاء الله يا سيّدي.

كان الفارس يبحث عن السيّد عثمان صائحًا بانفعال:

نهض عثمان غازي من مكانه وناداه:

- تعالَ هنا!

سارع الفارس إلى السيد عثمان من دون إبطاء، وجاء القادة الآخرون أيضًا.

- خيرًا، لمَ هذا الاضطراب؟

- الأمـور سـيّئة جـدًّا يا سـيدي، لقـد تحالف نِيقُـولَا أميـر "إِينَاكُولْ" مـع أمير "قَرَاجَه حِصَارْ"، وسيهاجموننا بجيشيهما.

تنهّد السيد عثمان بعمق، وفكّر برهة، ثمّ قال في رباطة جأش:

- حسنًا، هل سيأتون من جهة "بِلَجِيكْ"، أم من جهة "دُومَانِيجْ"؟

- من جهة "دُومَانِيجْ" يا سيّدي.

- حسنًا، هذا يكسبنا قليلًا من الوقت، قُونُوزْ أَلْب! أخبر القادة جميعًا أن يجتمعوا في الحال.

الحرب في "دُومَانِيچْ"

بعد بضع دقائق كان السيّد عثمان يجتمع بقادته، ويخاطبهم قائلًا:

- إخواني، بينما نخطط نحن للاستيلاء على "قَرَاجَه حِصَارْ"، إذ بنِيقُولَا يتحالف مع أمير "قَرَاجَه حِصَارْ" للهجوم علينا، يجب أن نستعدّ بأقصى سرعة.

كُونْدُوزْ أَلْب:

- سيدي، أين نحارب؟

- يجب أن نحارب خارج "سُوغُوتْ" بقدر الإمكان يا أخي.

- إذًا، فلنستعد بسرعة لنلقاهم في "دُومَانِيچْ".

- استعدّوا على الفور!

قام مَن في المجلس إلى أعمالهم بخطوات سريعة، وذهب السيّد عثمان أيضًا إلى خيمته، وعندما دخل وجد السيّدة مَلْخُونْ تعتني بطفلها، لقد علمت من تعبيرات وجه السيد عثمان أنّ الأمور لا تسير على ما يرام، فقالت له:

- لم أنت مضطرب يا عثمان؟

- إنّنا خارجون في حملة يا عزيزتي.

- متى؟

- الآن.

- الآن!

- لقـد اتحـد أميرا "إِينَاكُـولْ" و"قَرَاجَـه حِصَارْ" وسـيقومان بالهجوم علينا.

- حفظ الله عشيرتنا من كلّ سوء!

- آمين!

أمسك عثمان يدي زوجته قائلًا:

- مَلْحُـونْ، إذا لـم يصلكم منّا أخبار خلال خمسـة أيّـام، فاتركوا هذا المـكان علـى الفور، اجمعوا النسـاء والأطفـال كلّهم واذهبـوا قصدًا إلى "خَرْمَانْ قَايَا".

ضمّ السيد عثمان الرضيع المقمّط إلى صدره، وقبّل وجنته.

- "أُورْخَانْ (*Orhan*)"(٢٣)، هيّا اكبَرْ بسرعة.

أخذ السـيّد عثمان سـيوفه وسـهامه وجعبته ودرعه، ثـمّ ودَّع زوجته، وقال لها قبل أن يغادر الخيمة:

- ادعـي يـا مَلْحُونْ، ولتدعُ العشـيرة كلّها لأزواجهـا وأبنائها وآبائها، ادعوا بألا يخذلنا الحقّ تعالى في غزوتنا.

- إن شـاء الله يا سـيدي! لن يحرمنا الله من رئاسـتك لعشـيرتنا وبيتنا، في أمان الله!

تحـرّك جيـش "قَايِـي" مـن "سُـوغُوتْ" ليرحـل صـوب "دُومَانِيـجْ"، وكان مئـات الفرسـان يغـدون بخيلهـم مثيرين خلفهم سـحابة مـن الغبار الكثيـف، وكان عليهم أن يصلوا إلى "دُومَانِيجْ" بأسـرع ما يمكن، لم تكن أفواههم تنبس ببنت شـفة، وكان عثمان غازي يمشـي في مقدّمة الجيش،

وعلى جانبيه شقيقاه كُونْدُوزْ أَلْب وسَارُوبَاتُو، وأيضًا أَيْقُوتْ أَلْب وقُونُورْ أَلْب وعبد الرحمن غازي...

بدأت الشمس تتوارى خلف الأفق، وعندما تدثّرت السماء بلون ناريّ يتدرّج من الأحمر إلى الأصفر، بدت "دُومَانِيج" من بعيد، لكنّ العدوّ لم يبدُ في الأفق، التفت السيّد عثمان إلى مَن بجواره مبتسمًا:

- واضح أن ضيوفنا لم يأتوا بعد، فالبيزنطيون يرتدون دروعًا ويُلبسون خيلهم أيضًا الدروع؛ لذلك يتحركون ببطء شديد، كما أنّهم لا يسافرون ليلًا؛ لذا أعتقد أنّهم سيصلون إلى هنا غدًا وقت الضحى، فلنقم نحن باستعداداتنا.

كُونْدُوزْ أَلْب:

- سيّدي، سنقوم بعمل الاستعدادات، لكنّنا نشعر بالجوع، وننتظر متسائلين متى يأمر سيّدنا بتناول الطعام.

- فلنتناول طعامنا، هل لدينا لحوم يا أَيْقُوتْ؟

- نعم، كيف لا يا سيدي!

أُشعلت النيران، وبعد قليل امتلأت الأرجاء برائحة اللحم، والتفّ الشجعان حول النيران وتناولوا طعامهم جيّدًا، ثمّ صلى بهم السيّد عثمان العِشاء، وقال بعد الصلاة:

- قُونُورْ أَلْب، قسِّم جنودنا إلى عدّة أقسام، ووزعهم بين الأنحاء كافّة، تحسبًا للاحتمالات كلّها، ربّما يقوم البيزنطيّون بهجومهم ليلًا، وليكن في الجوار الحراس أيضًا.

- أمرك يا سيّدي.

وُضع الحراس حول المكان.

كانت هضبة "دُومَانِيجْ" تزداد جمالًا في الليل، وكأنّ آلاف النجوم ترقب عشيرة "قَايِي"، وأيضًا حفيف أوراق الشجر تحرّكها الرياح الآتية من جبل "يِرْجَه (*Yirce*)"(٢٤)، كان الجميع نائمين ما عدا الحرّاس وشخص آخر، إنّه عثمان، فقد كان يدعو في منتصف الليل، ويتضرّع إلى الله قائلًا: "إنّما النصر من عند الله، غدًا ستكون غزوة عسيرة، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللّهمّ ليس لي أنا وعشيرتي غاية سوى كسب رضاك، فانصرنا على أعدائنا في حرب الغد".

بعد أن انتهى من دعائه نظر إلى الجنود، فوجد بعضهم ينام في الخيمة وبعضهم الآخر خارجها، شاهدهم بابتسامة حزينة، قال في نفسه:

"إنّها الحرب، فبعضهم سيفقدون أرواحهم هنا غدًا، ولن يتمكّنوا من العودة إلى "سُوغُوتْ"".

نهض شجعان عشيرة "قَايِي" لصلاة الفجر، وعندما بدأ الفجر يبزغ على هضبة "دُومَانِيجْ"، أدوا الصلاة ثم صاح السيّد عثمان:

- أيّها القادة، أيّها الشجعان، أيّها الجنود، فلندعُ الله جميعًا أن ينصرنا في حربنا؛ إنّنا نؤمن بقوة الدعاء، ونؤمن أيضًا أنّ النصر والهزيمة أمر يعلمه الله، إنّما علينا أن نؤدّي واجبنا، اليوم هنا سيفقد بعضنا دماءهم وبعضنا الآخر أرواحهم، فليتسامح الجميع.

وكأنّها لم تكن صلاة الفجر بل صلاة العيد؛ فتعانق الجميع طالبين العفو:

"سامحني يا صديقي! سامحني يا أخي! سامحني يا قائدي!".

عانق السيّد عثمان أيضًا أخويه كُونْدُوزْ أَلْب وسَارُوبَاتُو، ثمّ عانق قادته الآخرين واحدًا تلو الآخر وطلب منهم جميعًا العفو، ثمّ جمع قادته مرّة أخرى، وتحدّثوا عن كيفيّة القيام بالحرب وعن مهمّة كلّ فرد منهم.

ومع اقتراب وقت الضحى، قال الراصدون إنّهم رأوا سحابة من الغبار الكثيف في الأمام، إنّه جيش الأمراء البيزنطيّين.

كان الجميع سيهاجم البيزنطيّين على وَفْق التعليمات، أولًا ستقوم الوحدة الأماميّة تحت قيادة سَارُوبَاتُو بغارة مفاجئة لإرباك العدوّ، ثمّ يتم القضاء على العدوّ بهجوم مباغت من دون إعطائه الفرصة أن يستجمع قواه.

شعر البيزنطيّون بالتعب من طول طريقٍ استغرق ساعات، فأراد العثمانيّون أن يستغلّوا هذا، وكان جيش البيزنطيّين قد اقترب حينئذ منهم؛ فَهَمَّ السيّد عثمان بإرسال أحد الجنود لمحاورة العدوّ كما جرت العادة.

قال للرسول:

– قل لنِيقُولَا: لم نأتِ إلى هنا لمحاربتهم، فليثوبوا إلى الحقّ، وليتركوا أراضينا أو يستسلموا، وإن أبوا إلا الحرب فإنّني "عثمان بن أَرْطُغْرُولْ غَازِي سيّد عشيرة قَايِي"، لأضيقنّ الخناق على نِيقُولَا، وعليه ألا يقع في يدي، فلو وقع، فحذارِ أن يطلب العفو.

ذهب الرسول بسرعة إلى جيش البيزنطيّين، وأخبر نِيقُولَا ما قاله السيّد عثمان؛ وعندما سمع نِيقُولَا الرسول، بدأ يضحك بصوتٍ مجلجل فوق حصانه، فاهتزّ بدنه المتدثر بالدرع جميعه من ضحكاته العالية، ثمّ بدأ البيزنطيّون جميعًا يطلقون ضحكاتهم، فالتفت نِيقُولَا إلى مَن بجانبه:

- أتسمعون، عثمان ليس لديه نصف ما لدينا من جنود ويتحدّانا، اسمع أيّها الرسول، اذهب إلى سيّدك، وقل له: مَن يتحدّانا نُطِحْ برأسه؛ فسارعوا بالاستسلام، وإلا فستتحملون عواقب ذلك.

واصل آيا نِيقُولَا قهقهته...، وعاد الرسول إلى السيّد عثمان، وشرح له الموقف، فقال الأخير لمَن حوله بصوت جهوري:

- لم يبقَ إلا الحرب، هيّا أيّها الأبطال!

قامت وحدة سَارُوبَاتُو بالهجوم على الجيش البيزنطيّ بسرعة شديدة على وفق الخطة المرسومة، فلم يُسمع في "دُومَانِيجْ" إلا الأصوات المرددة: (الله أكبر! الله أكبر!) كان صداها القادم من جبل "يِزجَه" يُدوِّي في الأرجاء كافة.

كانت هناك سحابة من الغبار في البداية، تلاها صليل السيوف، وأصوات القتال والأبواق ينفخ فيها البيزنطيّون، وكان الـ"قَايِيون" يردّون عليها مكبرين مهللين، كانت الأصوات تحارب أولًا في السماء، ويحارب الجنود على الأرض.

بدأت المجموعة المهاجمة صفوف الأعداء أولًا في العودة بسرعة، وتعقبها رجال أمير "إِينَاكُولْ" وأمير "قَرَاجَه حِصَارْ"، وعندما رأى البيزنطيّون تراجُع جنود "قَايِي" صاحوا قائلين:

- جنود "قَايِي" يهربون، اركضوا لنمسك بهم هيّا، وليأتِ مَن يريدون تقاسم الغنائم!

ثمّ سُمع صوت نِيقُولَا:

- اقضوا عليهم ولا تسمحوا لأحد منهم أن يهرب، وليعلموا كيف تكون عاقبة مَن يواجه نِيقُولَا!

ركض البيزنطيّون بخيلهم غاضبين يتعقّبون جنود "قَايِي"، لا أحد يعرف كم شخصًا من الـ"قَايِين" سيلقى حتفه على أيدي البيزنطيّين وبسيوفهم المستقيمة، ثمّ يأخذون الغنائم، بل ربّما يُبدون شيئًا من التفوق في ميدان القتال، ويحصلون أيضًا على الجوائز الثمينة!

كان للبيزنطيّين حساباتهم، وللسيّد عثمان حسابات أخرى...، تحير فجأة البيزنطيّون الراكضون بخيلهم متعقبين مجموعة الـ"قَايِين"؛ إذ ارتدّ الهاربون فجأة، فوقف البيزنطيّون أيضًا، إنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة، لم يُسمع سوى صوت الرياح تهبّ من جبل "بِزْجَه"، وصهيل الخيل، أراد القائد البيزنطيّ أن يرفع سيفه في الهواء ويصوبه قائلًا:

- اهجموا!

لكن قبل أن يصيح، إذا بالجنديّ بجانبه يلفت انتباهه إلى شيء ما، لقد أغلق الـ"قَايِيون" الطريق خلفهم، وهم الآن يحاصرونهم من الأمام والخلف، في هذه الأثناء ظهر الرماة الـ"قَايِيون" أيضًا على ميمنتهم وميسرتهم، لقد وقع البيزنطيّون في الفخّ، فانطلق عثمان غازي قائلًا:

- هيا، يا الله!

وانطلق قُونُورْ أَلْب، وأَيْقُوتْ أَلْب، وعبد الرحمن غازي، وطُورْغُوتْ أَلْب الذي شقّ صفوف العدوّ مع رجاله كالنسر، تمّ القضاء تمامًا على جنود أمير "إِينَاكُولْ" وجنود أمير "قَرَاجَه حِصَارْ"، وفرّ نِيقُولَا مع بعض الفرسان، وأنقذ نفسه من الموت بصعوبة؛ أما السيّد عثمان، فقد ظهرت السعادة على وجهه، وهو يردد قائلًا:

- الحمد لله!

ثــمّ هنّــأ قادتــه في ميدان القتــال واحدًا تلــو الآخر، هنأ أَيْقُــوتْ أَلْب، وقُونُــوزْ أَلْــب، وعبد الرحمن غازي، وأخاه كُونْـدُوزْ أَلْب، ثم راح يبحث بعينيه برهة عن سَارُوبَاتُو، وقال:

- تُرى أين هو؟

- أَيْقُوتْ أَلْب!

- لبّيك يا سيدي.

- أين أخي سَارُوبَاتُو؟

- لم أره بعد الهجوم الأول يا سيّدي.

- هل رأيته يا قُونُوزْ أَلْب؟

- كلا يا سيدي.

- تُرى أين هو؟

القلب ينفطر

بينما كان أفراد عشيرة "قَايِي" يستجمعون قواهم للعودة إلى "سُوغُوتْ"، إذ جاء أحد الجنود راكضًا بفرسه مثيرًا الغبار حوله...، إنّه شابّ يافع، طرَّ شاربه حديثًا، يلهث من التعب، ترجّل بسرعة، وذهب راكضًا إلى السيّد عثمان.

نادى في البداية قائلًا:

- سيدي!

لم يكن يستطيع التحدث، فحاول أن يأخذ نفسًا عميقًا، لكنّه لم يستطع، كان جسمه كلّه يرتجف، ولونه قد شحب، ثم حاول التحدث مجدّدًا:

- سيدي...، سَارُوبَاتُو...

رفع السيّد عثمان حاجبيه الأسودين الطويلين، ونظر للشابّ.

- ماذا حدث، تكلّم بسرعة يا بُنيّ!

- سيّدي، سَارُوبَاتُو...، سَارُوبَاتُو استُشهد!

فصرخ الـ"قَايِيون" كلّهم أجمعون صرخة ألم، وتأوّهت الأرجاء بصوت يدوي في جبل "يِزْجَه"، ويرتفع من هناك إلى الغاب، ومنها إلى السماء، ثمّ رثاه أفراد "قَايِي" رثاءً تئنّ منه الجبال والحجارة، دعاء أبديّ إلى الخالق، بعضهم خرّ صريعًا، وبعضهم استند إلى شيء بجانبه، سقطت السيوف من الأيدي، وأُلقيت التروس، الأبطال الذين كانوا قبل قليل ذوي بأس شديد على البيزنطيّين، ها هم ينهارون لخبر، خبر يمزّق الفؤاد...

سأل السيّد عثمان الشابَّ محاولًا إيقاف دموعه المنهمرة:

- أين جثّته؟

- قرب مكان الهجوم الأول.

ركض السيد عثمان قافزًا على حصانه إلى المكان، وتبعه جميع أفراد "قَايِي" جميعًا.

كان سَارُوبَاتُو سَاوْجِي يرقد تحت شجرة صنوبر، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة، ربّما كانت سعادة التحليق من الدنيا إلى الجنة، وربّما كانت سعادة التضحية بدمه ونفسه في سبيل إعلاء راية الإسلام.

نظر السيّد عثمان إلى الشهيد، وترجّل، لم يُسمع سوى صوت نحيبه.

- أخي!

كان جسد سَارُوبَاتُو كلّه مخضبًا بالدماء، لكنّ وجهه -ذلك الوجه المضيء- كان شديد النقاء، هل غسلت الملائكة وجهه، أم كان يتألق سعادة؟

لم يكن الفؤاد ليتحمل هذا المشهد؛ شعر السيد عثمان بالحزن والأسى حيال ما رآه، واحتضن جثّة الشهيد بشدّة، وبكى بكاء مريرًا، كان معه أفراد "قَايِي" الذين ضيقوا على العدوّ ميدان القتال، وكما كان الجبل والحجر يئنّان أثناء القتال بالتكبير والتهليل فقد أخذا يئنّان الآن من البكاء المرير.

آهٍ على سَارُوبَاتُو سَاوْجِي! لقد استشهد ابنه العام الماضي، كان يتذكّره دائمًا، والآن لحق به وذهب إلى جواره!

ثمّ جاء كُونْدُوزْ أَلْب...، كُونْدُوزْ أَلْب الذي لا تعجزه الجبال، كُونْدُوزْ أَلْب الذي هو مثال الإقدام والشجاعة...، كُونْدُوزْ أَلْب الذي هو شجرة عظيمة...، كُونْدُوزْ أَلْب أكبر أبناء أَرْطُغْرُولْ غَازِي...، وظلّه الحيّ...

انهار كُونْدُوزْ أَلْب بجانب السيّد عثمان، عضّ شفتيه وزمّ عينيه كي لا يبكي، إلا أنّه لم يتمالك نفسه وبكى، انهمرت الدموع من كُونْدُوزْ أَلْب على أخيه المفارق للحياة، دموع كانهيارٍ جليدي يسقط من الجبل؛ ورغم أنّ الشهداء يدفنون بلا غسل وكفن فإن الأخوين غسّلاه بدموعهما.

استمرّ هذا المشهد دقائق بل ساعات، إنّ نجمًا آخر قد أفل، رحل سَارُوبَاتُو بطل ميادين القتال، والد الشهيد بَايْقُوجَه، زوج السيّدة مَهْلِيكَة، رحل ككلّ شيء فانٍ، وكما سيرحل الجميع...، لكنّه لم يرحل إلى العالم الآخر مثل الجميع، فقد أخذ معه سترته وسرواله وعمامته المخضبة بالدماء، رحل بملابس سيستعرضها دليلًا عندما يُسأل لدى المولى ﷻ: "ماذا فعلت في الدنيا؟".

وضعوا جثته على صهوة حصانه المرّةَ الأخيرة وربطوه، آهٍ على سَارُوبَاتُو! كيف كان يركض بحصانه مثل الريح كأنّما يطير، أمّا الآن فإنه يوضع على الحصان للمرّة الأخيرة مربوطًا.

رحلوا إلى "سُوغُوتْ"، وفي الطريق كان عثمان غازي يفكّر ماذا سيقول للسيّدة مَهْلِيكَة.

وصلوا "سُوغُوتْ" قبيل صلاة العصر، فوجدوا العشيرة كلّها تنتظرهم على حافة الطريق، كان مئات الفرسان يتوافدون في صمت وهدوء كنهر دافق، وكانت السيّدة مَهْلِيكَة والسيّدة مَلْحُونْ أيضًا في الخارج ومعهما نساء العشيرة جميعهنّ وأطفالها وشيوخها، كان الجميع ينتظرون

خبـرًا سـارًّا؛ فـي البداية لم يتمكّن أحد من تفسـير هذا الصمـت، ثمّ رأوا الشـهداء في الخلف، الشهداء الذين رُبِطوا على صهوات الخيل، يتقدّمهم ذلـك الشـهيد العظيـم سَـارُوبَاتُو؛ فعلت صرخة في العشـيرة هـذه المرّة، ولـم يصدّق أحد عينيه، ولـم يُرد أحد التصديق، ثمّ سُـمع هاتف:

- استُشهد سَارُوبَاتُو سَاوْجِي!

ذهـب السـيّد عثمـان أولًا إلـى السـيّدة مَهْلِيكَـة المفجوعـة بما رأت ومـا سـمعت، وكأنّ الزمان والمكان عندها قـد توقّفا، أطبق الصمت على "سُوغُوتْ"، وحاول عثمان غازي التحدث:

- زوجة أخي...

لم تكن تستطيع الردّ، ناداها عثمان غازي مجددًا فالتفتت...، قال:

- زوجة أخي، لقد رحل أخي سَارُوبَاتُو إلى جوار ابنه بَايْقُوجَه.

لم تستطع القول سوى:

- استُشهد!

قَسَتْ ملامحها، جرت واحتضنت الجثّة ونادتها قائلة:

- سيدي، وزوجي، وعماد بيتي سَارُوبَاتُو...

تسمّر الجميع في أماكنهم، وواصلت السيدة مَهْلِيكَة:

- أولًا رحـل بَايْقُوجَـه، والآن رحلـتَ أنـت أيضًـا يـا بطلـي، ليتـك اسـتصحبتني معـك، لماذا لـم تأخذني معك؟ مـاذا أفعل هنـا بعد الآن يا سَـارُوبَاتُو؟ مـن الآن فصاعدًا سـتنتظر مَهْلِيكَة يوم اللحـاق بك، أرجو ألا تنسانا يوم الحشر يا شهيدي!

في هذه الأثناء حضر أَدَبَالِي، وذهب إلى السيّد عثمان أولًا.

- البقاء لله.

- البقاء لله يا أستاذي.

ثـمّ صلـى أَدَبَالِي بهم صـلاة الجنازة، ودفنوا سَـارُوبَاتُو سَـاوْجِي في "سُـوغُوتْ" بملابسه المخضبة بالدماء، وقد غاب شجاع مثل النجم، نجم سيحيا في القلوب...

رُزِق عثمان غازي في تلك الأيام بطفل، وأسماه سَاوْجِي، كي يحمل اسم عمه الشهيد ومجده.

الارتحال إلى "سَقَارْيَا"

دخلت "قَرَاجَه حِصَارْ" تحت سيطرة عثمان غازي بعد الانتصار في معركة "دُومَانِيجْ"، ولما وصل عثمان غازي مع رجاله إلى "قَرَاجَه حِصَارْ"، كان معظم مَن في المدينة قد هاجروا، ولم يبقَ سوى بعض العائلات.

وبينما يتجول السيد في المدينة، إذ جاءت إليه امرأة بيزنطيّة عجوز ومعها ابنتاها، فخرّت عند قدمي عثمان غازي باكية:

- أتوسّل إليك، لا تقتلونا!

أقام عثمان غازي المرأة من الأرض، فواصلت المرأة حديثها:

- سأعطيك ابنتي هاتين، لكن أتوسّل إليك لا تقتلونا.

- أيّتها المرأة، هل سمعتِ قبل ذلك أنّ الـ"قَايِين" مسّوا الأطفال أو النساء أو الفتيات بسوء؟

- كلا، لم أسمع.

- إذًا لماذا تتوسّلين؟ لتبقَ بناتُك معك؛ وليعشن أينما يردن، وعلى الدين الذي يردْنَ، ولا تقلقن على أنفسكنّ؛ فأهل "قَايِي" يتبعون مبادئ الإسلام الذي لا يظلم أحدًا.

أطلقت المرأة وابنتاها صيحات ابتهاج، وعُدن إلى منزلهنّ.

وعند تجوله في المدينة لفت انتباهه أحد الأبنية، بناء مرتفع، في جانبه برج، وعليه صليب ضخم، عرف أنّها كنيسة، فنادى أحد رجاله:

- طُورغُوتْ أَلْب، اصعد وأنزِل ذلك الصليب من هناك.

- أمرك يا سيّدي.

- من الآن فصاعدًا سيكون هذا المكان جامعنا، غطوا في الحال الرسوم بداخله ونظفوه بأسرع ما يمكن لترفرف هنا راية اسم الله تعالى والرسول ﷺ.

- أمرك يا سيدي.

- لن تتحول أيّة كنيسة أخرى إلى جامع سوى هذه الكنيسة، فلن تُمسّ شعرة من البيزنطيّين الباقين في هذه القصبة، من الآن فصاعدًا أرواحهم وأملاكهم وأعراضهم أمانة عندنا، لن نتدخّل في دين أحد أو لغته، لقد تعلّمنا من أجدادنا كما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/٢٥٦)، وإذا عشنا بتعاليم ديننا، فإنّهم سيستجيرون بنا؛ فلا يتدخل أحد في شؤونهم.

* * *

اجتمع القادة كلّهم في خيمة القيادة في "سُوغُوتْ"، تشاوروا فيما سيفعلونه بعد ذلك.

عبد الرحمن غازي:

- سيّدي، يجب أن نلقن نِيقُولَا درسًا أكبر، وإلا فلن نُحكِم السيطرة على هذا المكان.

- معك حقّ -يا غازي- لن نهنأ بالراحة طالما لم نقضِ على شرّ نِيقُولَا، لا نستطيع أن نفكّر في نِيقُولَا دائمًا مثل عِقصة تترجّح على رؤوسنا.

- سيّدي، إذا أذنتم فلدي اقتراح.

- هذا مجلس شورى، ما اقتراحك؟

- إن "صَامْسَا جَاوُشْ (Samsa Çavuş)"(٢٥) وأخاه "صُولَامِشْ (Sulamış)" في "مُودُورْنُو (Mudurnu)"(٢٦) صديقان لنا، لقد عانيا كثيرًا أيضًا من عدوان نِيقُولَا، أرى أن نتّحد معهما لشنّ غارات على وادي "سَقَارْيَا"(٢٧)، ونستولي على أماكن يجمع فيها نِيقُولَا الجنود والمحاصيل.

- أوافق على ما قلته، لكنّ عبور نهر "سَقَارْيَا" أمر صعب جدًّا.

كان مِيخَالْ يستمع إلى ما يُقال في صمت منذ أن بدأ الاجتماع، ثمّ تدخّل في الحديث قائلًا:

- سيّدي، إنّني أقمت كثيرًا قرب "سَقَارْيَا"، وأعرف أنا ورجالي أين المعبر، وإذا أذنتَ، فلننضمّ نحن أيضًا إلى الحملة هذه المرّة، ولنرشدكم إلى الطريق، كما أنّ صَامْسَا جَاوُشْ صديقنا أيضًا.

- أعتقد أنّ هذا مناسب، فما رأي قادتي؟

عبّر قُونُورْ أَلْب وعبد الرحمن غازي وكُونْدُوزْ أَلْب وطُورْغُوث أَلْب وغيرهم عن قبولهم لهذا الرأي قائلين:

- نراه ملائمًا أيضًا.

عندما أبلغوا صَامْسَا جَاوُشْ بالأمر من خلال الرسول، قال:

- أبلغ سيّدي السلام، أعرف جيّدًا أنّ نِيقُولَا شخص ملعون، لقد تراجعنا حتى مشارف "مُودُورْنُو" بسببه، إنّه كافر، فلحظة أن يجد الفرصة لا يترك حَجَرًا على حجر ولا رأسًا على جسد، هذه الغارة ستكون صائبة،

سألقاكم أنا ورجالي عند شاطئ "سَقَارْيَا"، فسارِعوا بالمجيء.

تمّ الاستعداد للغارة في سريّة تامّة، لم يكن أحد يعرف أين أو متى الغارة سوى القادة فقط، كان من الواجب إخفاء السرّ جيّدًا، فالإمارة كانت لا تزال في مرحلة التأسيس، ودولة لا تستطيع إخفاء سرّها، سرعان ما تتقوّض أركانها.

عندما انتهت استعدادات الحملة، بدؤوا يتبادلون عبارات الوداع والتسامح، وتُرِك بعض الرجال لحماية النساء والأطفال والشيوخ، وانضمّ الباقون إلى الحملة.

نهر "سَقَارْيَا" ينساب في هدوء، ويمتدّ متعرّجًا في صمت رويدًا رويدًا، حيث يجري إلى وادٍ عميق...

تحرّك الجيش صوب "سَقَارْيَا" وفي مقدّمتهم عثمان غازي وبجانبه مِيخَالْ ومن خلفهما الآخرون...، قال عثمان غازي لمِيخَالْ:

- النهر كبير جدًّا يا مِيخَالْ، ماذا نفعل؟

- سيّدي، سنعبر من "صاري قايا" ومن "بكتاش" كي نذهب من ناحية "صورقون"؛ فعبور نهر "سَقَارْيَا" سهل هناك، وإذا عبرنا من هناك، فسنصل إلى صَامَسَا جَاوُشْ بشكل أسهل.

عندما وصلوا إلى حافة النهر، رأوا رجلًا شيخًا، شديد بياض اللحية، يرتدي جبّة قديمة، وعلى رأسه عمامة بالية، قد جلس ليستريح بجانب الحديقة على حافة النهر...، نادى عثمان غازي الشيخ:

- السلام عليكم يا شيخ.

- وعليكم السلام يا بُنيّ.

- أنا عثمان بن أَرْطُغْرُولْ غَازِي سيّد عشيرة "قَايِي".

- لقد سمعتُ عنك -يا سيدي- أهلًا بك.

- هل من معبر لهذا الماء يا شيخ؟

- هـذا المـاء وإن كان بحـرًا، لا يُعجـز الفاتحيـن بـإذن الله، بارك الله غزوتكم يا سيدي!

- شكرًا يا شيـخ.

- طالما يملأ قلبكم الخوف من الله، فإنّه سيُسَهِّل صعابكم.

- إنّنا حريصون على غرس الخوف من الله في قلوبنا، فلا تحرمنا من دعائك.

- سأدعو لكم دائمًا، أعانكم الله يا بُني!

عبـروا النهـر من المكان المقتـرح من مِيخَالْ ممسـكًا بعضهم ببعض بحبـال طويلـة، وفي تلـك الأثناء، انزلقت قـدم حصان، فسـقط في الماء مـع فارسه، وبدأ نهر "سَقَارْيَا" يجرف الحصان وفارسه، فوجم الجميـع.

عبـر عثمـان غـازي إلى الشـاطئ المقابـل، ونزل عن صهـوة حصانه في الحال، وانتزع غصنًا ثخينًا طوله سـتّة أمتار أو سـبعة وجده على حافة النهر، لم يكن الغصن الضخم يخرج فقد كان منغرزًا في طمي النهر، ألقى عثمان غازي نظرة إلى الشـابّ المنجرف وأخرى إلى الغصن، ثمّ سُـمـع صوت جهير يقول:

- يا الله!

انكسـر الغصن من أعلى مكان انغراسه، ركض عثمان غازي، وحاول

اللحاق بالفارس -وقد سحبته مياه النهر- حاملًا في يده غصنًا ثخينًا طويلًا قد تضخّم كثيرًا وثقل بسبب مكوثه في الماء، لكنّه كان يجري بسرعة كأنّه لا يحمل شيئًا، وكان ينادي أيضًا:

- تحمَّل أيّها الشجاع!

لحق السيد عثمان بالجنديّ المنجرف، وتخطاه قليلًا، وأدنى الغصن في يده نحو النهر ممسكًا به من أسفله، ومثل هذا الإمساك صعب جدًّا، وقد انعكس ذلك على وجهه الذي انقبض بشدة:

- أيّها الشجاع، تشبّث بالغصن!

تشبّث الجنديّ الشابّ بالغصن، فجذب عثمان غازي الغصن، وأنقذ الجنديّ الشجاع الذي تغطى بالطمي، فألقى بنفسه مع الفارس بصعوبة إلى حافة النهر، وجلسا جنبًا إلى جنب بعض الوقت.

- سيدي لقد أنقذتَ حياتي، حفظك الله من كلّ سوء!

- آمين، وأنت لا تهوّل من الأمر -أيّها الشجاع- كيف أنتَ الآن؟

- بخير يا سيدي، لكنّني ابتلعت قليلًا من الماء، لكن...

- لكن ماذا؟

- حصاني...، لقد فقدتُ حصاني!

- لا تقلق، الخيل تَسبَح جيدًا، سيجد سبيلًا ويخرج، وإذا كان وفيًا سينتظرك وإلا فإنّه غير جدير بعشيرة "قَايِي"، فلا تحزن.

فرح جيش "قَايِي" عندما رأوا سيّدهم مغطّى بالطمي وبجانبه الجنديّ مبللًا تمامًا، بدأ الجميع يتحدّثون عن قوة عثمان غازي، وكسره للغصن الضخم، وركضه به، وإمساكه به فوق النهر...، تحدثوا فيما بينهم قائلين:

- هكذا يجب أن يكون السيّد!

زحفوا نحو شاطئ "سَقَارْيَا" مثيرين سحبًا من الغبار، والتقوا بـ"صَامْسَا جَاوُشْ" ورجالـه، وعندما رأى الأخير عثمان غـازي، ترجّل...، فلمّا رآه عثمان غازي، ترجّل أيضًا عن حصانه.

- شرَّفت يا سيّدي، هذه الأرض تتوق إليكم.

- شـكرًا يـا صَامْسَـا جَـاوُشْ، لقـد كان والـدي ﷺ يتحـدث كثيـرًا عن صداقتك وشجاعتك.

- أسـتغفر الله، إنها شـجاعته هو ﷺ ماذا تنوي يا سيّدي؟ أين تريدوننا أن نقوم بالهجوم؟

- إنـك تعـرف أكثـر مني كيـف أنّ نِيقُـولَا مصيبة حلّت بنـا؛ لذا جئنا لنهجـم عليه قبل أن يهجم علينا، فحيثما ترَ مكانًا مناسـبًا للبداية، فسـنبدأ منه إن شاء الله.

- سـيدي، أعرف أهل هذا المكان جيّدًا، سنسيطر عليه -إن شاء الله- من دون أن نستلّ سيوفنا، إنّ السكان هنا أيضًا ضاقوا ذرعًا بـ"نِيقُولَا"، ولن يرفض أحد عثمان غازي، فلنتقدّم ولنبدأ من جهة قرية "صورقون".

وصلوا أولًا إلى قرية "صورقون"، ثمّ استولى الـ"قَايِيون" على "تراقلي (*Taraklı*)" وأخيرًا على "كوينوك (*Göynük*)"، ولـم يواجهوا مقاومة حقيقيّة، كان سـكان المنطقـة يعرفون صَامْسَـا جَـاوُشْ؛ لذا أعطـوه إدارة الأماكن المفتوحة، وتركوا معه عددًا من الجنود، وعادوا إلى شاطئ "سَقَارْيَا".

وبينمـا كان نهر "سَـقَارْيَا" ينسـاب في هدوء، إذ بهـم أمام مفاجأة عند شـاطئ النهر، لقد نجا الحصان السـاقط أثناء عبور النهر وعاد، كان يأكل

العشب الطازج من جهة، ومن جهة أخرى ينتظر فارسه...، ضاعف هذا المشهد سعادة السيّد عثمان.

- مرحى أيّها الحصان العربيّ الأصيل، إنّ عشيرة "قَايِي" في حاجة إلى الرجال الأوفياء، والرجال الأوفياء في حاجة إلى الخيل الوفيّة، تنتظر فارسك، وربما تنتظر "بُورْصَة" أو أدرنة أو القسطنطينيّة أصحابها الحقيقيّين أيضًا.

كانت آخر كلمات السيّد تحمل معنى الوصية لمن بعده...، عادوا هذه المرّة إلى "سُوغُوتْ" بسعادة غامرة من دون خسائر ومعهم الغنائم النفيسة؛ فأسعدوا مَن كانوا ينتظرون.

الاستعداد للحرب

تلاحقت الأيام والشهور، وحلّ شهر رمضان المبارك، لم يكن عثمان غازي يتعمد الغزو في رمضان اقتداء بالرسول ﷺ، وكان يرى رمضان زمن الفتح الحقيقيّ لأعماق الإنسان، وأوان القيام بغزو النفس.

بدأ أذان المغرب يتردّد في "سُوغُوتْ"، وكان السيّد عثمان يقيم مأدبة الإفطار للعشيرة كلّها، ومع انتهاء الأذان أفطر الصائمون معًا على الزيتون، ثمّ ذهب الرجال جميعهم إلى الصلاة، رُفعت الأكفّ تضرعًا إلى الخالق في مسجد أَرْطُغْرُولْ غَازِي، أما النساء فكان اضطرابهنّ يستحقّ المشاهدة؛ إذ كانت السيّدة مَلْحُونْ تنادي بانفعال:

- هيّا، يا أخوات، سيأتي الرجال من الصلاة، فلنسارع بإعداد الموائد.

رُتّب على المائدة الحساء، والأرز باللحم، واللبن الرائب، والمشروبات، والحلويات، والرقائق بعناية شديدة، كان عثمان غازي يحبّ أن يقري الضيف، ويقوم بنفسه بتوزيع الطعام.

كان الناس تحت حكم البيزنطيين لا يرون حكامهم يخرجون من قلاعهم أو يخالطون الشعب، بيد أنّ سيّد قبيلة "قَايِي" كان يعيش في خيمة، ويقدّم الطعام لأهل قبيلته يومين في الأسبوع سواء في رمضان أو في غيره، وكان يقوم على خدمتهم، ويتناول الطعام معهم بلا تكلّف، وكانت ثروة عثمان غازي هي أغنامه فقط، تلك الأغنام التي كانت تُقدَّم لقبيلته أو لضيوفه الغرباء...، لم يكن يهتم بادخار الأموال، خاصّة أنّه لم يكن يفكّر أبدًا في أخذ نصيب من الغنائم.

كان أكبر عمل لعثمان غازي هو تربية شباب القبيلة؛ فكان يأمر بتدريب جنوده باستمرار، ويقوم بتعليم أولاده وشباب عشيرة "قَايِي" جميعهم.

كان يشارك بنفسه في تدريبات السهام، ورغم أنّه تجاوز الأربعين من عمره، فقد كان يبدو معهم بحماسة شابّ في العشرين، ويساعد مَن لا يستطيع إمساك قوسه، ويعلمهم كيفيّة إمساك القوس وحركات السيف، وكان يشرح كيفيّة استخدام القضيب الشائك، والرمح، والترس، ويأمرهم بأن يتصارعوا فيما بينهم كي يكونوا أقوياء، وكان يصارعهم أحيانًا.

كان الفرسان في عشيرة "قَايِي" ينقسمون إلى فريقين، ويلعبون لعبة العصا بخلع رؤوس الرماح، فيقوم الفريقان المتنافسان بالتضارب بهذه الرماح، ومثلما كان هذا لهم تدريبًا جيّدًا على رمي الرمح، كان في الوقت نفسه تدريبًا على ركوب الخيل وتفادي ضربات الرماح.

كانوا يلعبون "لعبة الكرة" أو "الصَّوْلَجَانْ"(٢٨) للرشاقة وهم يركبون الخيل، وهي لعبة تُمارس في شكل فريقين من الفرسان يضربان بالعصا قربة ممتلئة ويحاول كلّ فريق أن يجعلها تجتاز خطّ الخصم، واللاعب الذي يسقط عن الحصان أو الذي يضرب فرس الخصم يخرج من اللعبة، وهكذا كان الشباب يجيدون ركوب الخيل مع المحافظة على خفّة الحركة.

كان سباق الخيل يأتي في مقدمة أنشطة يحبّ عثمان غازي مشاهدتها، وكان يحبّ كثيرًا مشاهدة الجري بالخيل أو على الأقدام، وبعضهم يسقط في أثناء ذلك، وبعضهم الآخر يُسقِط العمائم عن الرؤوس، وكان الساقطون على الأرض يحاولون أن ينهضوا ويعاودوا الجري بعزم، إنها مشاهد تؤثّر في مشاعر السيّد عثمان.

كان يحثّ أبناءه على المشاركة في التدريبات كلّها، لم يكن هناك ميزة لأحد ولو أبناء سيد القبيلة "بازارلو (*Pazarlu*)"، وعلاء الدين، وأُورْخَانْ، وسَاوْجِي...

عندما ينتهي التدريب العسكريّ، تبدأ التربية الدينيّة، كان الشباب الممسكون بالسيف والترس والسهم والرمح حتى الظهيرة يأخذون مصاحفهم هذه المرّة، ويقرؤون ما يتيسر لهم من القرآن بإشراف أساتذتهم، ويستمعون إلى تفسير ما قرؤوه، ويتعلمون كيف يُطبَّق الإسلام في حياة الإنسان، ويتعلمون أيضًا التواضع، والتسامح، والإخلاص، والوقار...، وكانت أصوات تلاوة القرآن مثل خرير الجدول تحلّ محلّ صليل السيوف وأصوات الدبابيس الحربية، وصفير السهام.

ورغم أنّ التدريب ينتهي بعد العصر إلا أنّه كان يستمرّ من أجل أبناء السيّد عثمان؛ فكانوا يتعلّمون استخدام السيف والتلويح بالقضيب الشائك من ناحية، ويتعلّمون من ناحية أخرى إدارة الدولة، ووضع القانون والنظام، وقيادة الجيش...

ذات يوم جاء الشيخ أَدَبَالِي، وكان عثمان غَازِي يجلس ساعات على ركبتيه في إحدى زوايا الخيمة، وكانت أمام أَدَبَالِي رَحْلة (طاولة عليها مصحف)، وأبناء السيّد أيضًا جاثون وأمامهم حوامل المصحف.

تلا الشيخ أَدَبَالِي في البداية الآية الحادية والأربعين من سورة الحج، ثم فسّرها:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (سُورَةُ الحَجِّ: ٤١/٢٢).

"القـرآن هو دليلنا، الكلام المذكور هنـا ليس موجهًا لكم فقط، ربّما هـي أيضًا تذكرة للذين سـيأتون مـن بعدكم بمئات السـنين؛ فمهما بلغتم ولـو حكمتـم العالـم بأكملـه، فـلا تنسـوا الله، ولا تقصروا فـي عبادتكم، ولا تخلوَنَّ قلوبُكم أبدًا من خشية الله، إذا كنتم ظالمين وغير منصفين وبلا ضمير، فإن الله سيسلط عليكم الظالمين وغير المنصفين وعديمي الضمير.

حـذارِ أن يكـون انتصاركم مدعـاة لتدللكم، اعلمـوا أنّ الله خالق كلّ شيء، وخالق السبب والمسبِّب، إذا كان لديكم مئات الآلاف من الجنود، فلن تسـتطيعوا فتح قرية ما لم يأذن الله بذلك، لقد كتب الله لكم السـيادة، فإذا محيت فكرة الجهاد من قلوبكم، وإذا كانت الدنيا سـتفتنكم، فاعلموا أنّ نهايتكـم قـد حانـت، لا أَرَى الله عبـدَه أَدَبَالِـي هذه الأمـور في حياته، ولا أبعدَ الله إمارتنا وولي أمرنا عن طريق إعلاء كلمة الله أبدًا، آمين".

وشارك الجميع في الدعاء مردّدين بصوت واحد:

آمين!

خُطّة ماكرة

تُسمع أصوات المناقشة الدائرة بحماسة في قصر حاكم "بِلَجِيكْ" من الخارج.

كان نِيقُولَا يتحدّث بصوت أعلى:

- لم نستطع أن نعرقل حركة عثمان الأسمر في حينها؛ ففقدنا كثيرًا من الأراضي ومئات الرجال، ورغم كوننا من نسل البيزنطيّين، ونؤمن جميعنا بعيسى، إلا أنّ بعضنا مثل حاكم "بِلَجِيكْ" يساند قبيلة "قَايِي"، إلى متى سيستمرّ هذا؟ لقد ضاعت اليوم أراضيّ في وادي "سَقَارْيَا"، لكنّني أعلم أنّ الدور سيأتي عليكم غدًا.

قال "دِيكَنِيسْ (*Digenis*)" حاكم "بِلَجِيكْ":

- نِيقُولَا محقّ، يجب أن نجد حلًّا على وجه السرعة.

سمع نِيقُولَا ردّ دِيكَنِيسْ، والتفت إليه بضحكة ساخرة:

- ماذا حدث يا دِيكَنِيسْ؟ ألم تكن أنت أوفى صديق للـ"قَايِين"؟

- أنا؟!

- ألا تتذكّر عندما كانوا يذهبون إلى الهضبة في "دُومَانِيجْ" ويسلّمونك أمتعتهم الثمينة، أنت أيضًا ملأت جيبك بهداياهم، فماذا حدث الآن؟

- كان ذلك فيما مضى يا نِيقُولَا، إنّني أرى عثمان الآن خطرًا عليّ، دعه يظنّ أنّني صديقه، أمّا أنا فلست صديقهم بعد الآن.

- إذا كان دِيكَنِيس أيضًا يفكّر هكذا، فيجب أنْ نجد حلًّا يقضي على الـ"قَايِين".

بدأ الحكام البيزنطيّون جميعًا يفكّرون في حلول بناءً على ما قاله نِيقُولَا، وكان همّ كلّ واحد منهم أن يصبح الإمبراطور البيزنطيّ؛ فكان ينافس بعضهم بعضًا، لكن كانت نقطة التقائهم الوحيدة هي عداوتهم لعثمان غازي وللـ"قَايِين"، اندفع دِيكَنِيس حاكم "بِلَجِيكْ":

- وجدته، وجدت حلًّا سيقضي على عثمان؟

- ما هو؟

- ذهبتُ مؤخرًا إلى عرس صديقي مِيخَالْ، وكان عثمان غازي قد حضر أيضًا، وقد أكّدنا في العرس على مودّتنا، لكّنه يتوهم بأن هذا حقيقة.

- لا تطل الحديث، قل ما تريد يا دِيكَنِيس.

- أقول لو أقمنا عرسًا أيضًا، ودعونا عثمان، فلن يشكّ فيّ، وسيقبل دعوتي، وفي أثناء العرس نقبض عليه ونقتله أو نضع أشدّ السموم في طعامه؛ فنتخلّص منه بهذه الطريقة.

نهض نِيقُولَا من السعادة.

- أرى أنها خُطّة ممتازة، فما رأيكم؟

تدخّل أمير "يَارْحِصَارْ" (*Yarhisar*) في الحديث:

- حسنًا، ستقيم العرس بين مَن يا دِيكَنِيس؟

- يوهانيس، لقد تحدّثتُ معك من قبل -يا صديقي العزيز- سنزوج ابنتك بابني.

- لكنّ هولوفيرا رافضة.

- لماذا؟

- لا تحبّ ابنكم، وتقول إنّها لا تريد الزواج به.

اندفع نِيقُولَا قائلًا:

- يا لها من حماقة! نتحدّث هنا أنّ عثمان لن يدع لنا مجالًا للعيش، وتأتي أنت لتتحدّث أنّ ابنتك لا تريد الزواج بابن دِيكَنِيس، افعل أيّ شيء -يا يوهانيس- لإقناع ابنتك.

- لا يمكن يا نِيقُولَا، لا أستطيع أن أفرض الأمر بالقوة، إنّها تقول: لن أتزوجه.

- هذه خُطّة قتل عثمان، فانضمّ إلينا إن شئت، أمّا إذا ابتعدت عنّا لأنّك لم تستطع أن تقنع ابنتك، فعليك أن تتحمّل العاقبة.

- ما هذا؟ أشمّ رائحة تهديد.

- لا أدري ماذا تشم.

- ماذا ستفعلون، هل تهاجمون أرضي؟

- إنّك لا تترك لنا خيارًا آخر.

- أرى أنّكم أشد خطرًا عليّ من عثمان، لكنّني سأحافظ على العهد الذي قطعته؛ سأضغط على ابنتي وأقنعها من أجل العرس.

فرح نِيقُولَا كثيرًا لأنّ الأمور تسير على ما يرام، والتفت إلى أمير "خَرْمَانْ قَايَا":

- ما رأيك في خُطّة العرس يا مِيخَالْ؟ عثمان يبدو صديقًا لك أيضًا.

تحدّث مِيخَالْ من دون أن يُظهر شيئًا:

- إنّني أعرف عثمان، سيأتي لعرس كهذا عندما تدعونه، لكنّكم لا تعرفون كيف يستخدم السيف وكم هو قويّ، من السهل اصطياد الطائر المحلّق، أمّا عثمان فلا يتأتى اصطياده ولو بمائة جنديّ.

- لا نسعى للإمساك به، بل سنسمّه.

قال حاكم "بِلَجِيكْ":

- أرى أنّ الأفضل قتله بالسم، فهو حاسم ولن ينتج عن قتله به خطر علينا، لكن لدينا أمر مزعج آخر، كيف ندعو عثمان؟

- إذا أرسلنا الدعوة مع رسول اعتياديّ، فلن يأخذها بمحمل الجِدّ؛ في رأيي يجب أن تذهب إليه يا دِيكَنِيسْ!

- كلا، لا أريد الذهاب، في حقيقة الأمر أُعرِّض نفسي للخطر بما فيه الكفاية بإقامة العرس هنا، فلن أذهب إلى عثمان وألقي بنفسي في التهلكة.

- لن يؤذيك عثمان؛ لأنه يَعُدّك صديقَه.

- كلا، يقولون: إنّ عثمان يُدرك الكذب بسرعة؛ فإذا استشعر أنّني وضعت خُطّة، فسيقطع رأسي.

- حسنًا مَن سيذهب؟

- فلتحلّوها أنتم، أرى أن مِيخَالْ يمكن أن يذهب.

- أتذهب يا مِيخَالْ؟

قال مِيخَالْ من دون تفكير:

- حسنًا.

- رائع، لم يبقَ إلا القليل كي نتخلّص من مشكلة عثمان.

رفع نِيقُولَا الكأس الحديديّة المليئة بالخمر، وصاح بابتهاج:

- أرفع كأسي نَخْبَ التخلّص من مشكلة عثمان، عاشت بيزنطة!

وصاح الحكام الآخرون كلّهم أجمعون:

عاشت بيزنطة!

استعدادات الزفاف

أصبحت "سُوغُوتْ" كأنّها مدرسة كبيرة، وكان عثمان غازي يهتمّ هو نفسه بتعليم الفتيان، أما الفتيات فكن يتعلّمن تعليمًا دينيًا، ويتعلّمن الأشغال اليدويّة المختلفة والتدبير المنزليّ.

جمع عثمان غازي شباب عشيرة "قَايِي" حوله، وبينما كان يدربهم على السهام، إذ بهم يبلغونه بقدوم مِيخَالْ.

- أهلًا بك يا كُوسَه (*Köse*)[٢٩] مِيخَالْ.

- أهلًا بك سيدي.

- تفضل، أراك متوترًا قليلًا.

- سيُنصب لك فخّ يا سيدي.

- خيرًا؟

- سيقيم حاكم "بِلَجِيكْ" عُرسًا، وأرسلوني لأدعوكَ.

تبسّم عثمان غازي.

- تُرى ما سبب إقامة الحاكم للعرس من دون مسوّغ؟

- أنت السبب يا سيدي.

- هل يقيم هذا الرجل العرس لأجلي أنا فقط؟

- أجل، سيزوج ابنه من ابنة حاكم "يَارْحِصَارْ".

- ألـن يتعقّـل هؤلاء الحكام -يـا مِيخَالْ- كلّ منهم يُـزجّ به في قلعة ويبقـى فيها، ويريـد أن يخلص بيزنطة ويصبح الإمبراطـور، وأيضًا يروننا خطـرًا عليهـم، وجنودهم عشـرة أضعاف جنـودي، ورغم ذلـك إذا كانوا يخافون منّا، فهذا يعني أنّنا على الطريق الصحيح.

- إنّك محقّ يا سيدي.

- هل تعرف أيّة حيلة يدبّرون لي في العرس؟

- سـوف يمسـكون بك ويقتلونك، وإذا لم يستطيعوا، فسيدسّون لك السُّمّ يا سيدي.

تبسم عثمان غازي قليلًا:

- إنّك لو أعطيت ماشـيتنا هناك عشـبًا مسـمومًا، فستدرك، ولن تأكله ولـو ماتـت من الجـوع؛ فحتى الحيوانات تدرك السُّـمّ، فهـل يظنّ أولئك الحكام أنّ سيد عشيرة "قَايِي" ساذج إلى هذا الحدّ؟

- معك حقّ يا سيدي.

- يكمن الخير في كلّ أمر، فلأجمـع قادتي، ولنبحث معهم أيضًا هذا الشأن.

ثمّ امتلأت خيمة عثمان غازي بالسادة والقادة، وهم: آقْچَه قُوجَه، قَرَه مُرسل، أَيْقُوتْ أَلْب، قُونُورْ أَلْب، صالْتوق أَلْب، طُورْغُوتْ أَلْب...

حكى عثمان غازي الأحداث باختصار:

- فـي الواقـع، الحـكام البيزنطيّون يظنّون أنّ أعناق الـ"قَايِين" سـتلين لهم بالقضاء عليّ، فما رأيكم؟

تحدّث آقْچَه قُوجَه وهو أكبر الحاضرين سنًّا:

- يجب علينا أن نتسلّح بسلاح العدوّ، إذا كانوا يريدون أن يوقعونا في الفخّ بعرس، فلنجهّز أنفسنا على وفق ذلك، بإذن الله سنردّ مكرهم في نحورهم .

- فيمَ تفكر؟

- يجب أن نجد حيلة لكيلا ندخل قصر حاكم "بِلَجِيكْ"، إنّهم على أهبة الاستعداد في هذه القلعة والقصر، سنقع في شراكهم؛ فلا نستطيع مقاومتهم.

- خطرت ببالي فكرة، فلنرسل مِيخَالْ إلى حاكم "بِلَجِيكْ"، ولنحاول أن نجعله يقيم العرس في مكان مفتوح، ولنخبره بأنّنا سنحضر نساءنا وبناتنا، ما رأيكم؟

تبسّم السادة وقالوا:

- فكرة جيّدة يا سيدي.

- إذًا اذهب إلى "بِلَجِيكْ" -يا مِيخَالْ- وقل للحاكم: إنّ الـ"قَايِين" إذا ما وصلوا إلى "بِلَجِيكْ"، فسيرغبون عن العودة، ويريدون أن يصعدوا إلى نجد "دُومَانِيجْ"، ويسأل عثمان غازي أيضًا: هل يقبلون أن نصطحب نساءنا وبناتنا معنا؟

- حسنًا.

- العرس يعني البهجة، وإذا جئنا بأُسَرنا، فسنكون أكثر عددًا، وربّما لا يسعنا القصر، ونحن الآن في فصل الربيع، فإذا أُقيم العرس في مثل ذلك المكان الأخضر، فلن نخجل من مجيئنا جماعات...، انقل ما قلته تمامًا.

- أمرك سيّدي.

- ولا تذهب خالي اليد، خذ معك قَوْطيْن(٣٠) هدية.

- حسنًا سيّدي.

- لا تنسَ أن تقول أيضًا: إنّ عثمان غازي سيرسل أربعين صندوقًا كبيرًا هدية للعرس حتى إنّه بدأ في إعداد الصناديق.

- أمرك سيّدي.

في الغد وصل مِيخَالْ إلى "بِلَجِيكْ"، وخلفه قَوْطان يقودهما راعيان.

فرح حاكم "بِلَجِيكْ" عندما رأى الهدايا.

- مِيخَالْ، أرى أنّك لم تأتِ صفر اليدين، هل أرسلها عثمان؟

- نعم.

- ماذا حدث، هل يأتي إلى العُرْس؟

- سيأتي، لكنّه يقول: "ليتنا نحضر نساءنا وبناتنا!" فإذا جاء حتى "بِلَجِيكْ" يريد أن يذهب منها إلى "دُومَانِيجْ".

- إذًا سيأتي مع النساء والبنات، جيّد جدًّا، هذا يعني أنّنا سنضرب عصفورين بحجر واحد.

- لديه طلب أيضًا.

- ما هو؟

- يقول: "إذا جئنا سنكون حشدًا، ولن يسعنا القصر، فإذا أُقيم العرس في ساحة خضراء، فلن نخجل لمجيئنا حشدًا".

- فكرة حسنة، إذًا فلنقم العرس في "چَاقِيرْ بِينَارْ (*Çakırpınar*)"[٣١] كي يأتي عثمان.

واصل الحاكم حديثه ضاحكًا بصوت أندى:

- هؤلاء العثمانيون! يا لهم من أناس مضحكين يا مِيخَالْ! يودّون لو أنّ العرس يُقام في مكان مفتوح لأنهم سيأتون جماعات ولا يريدون أن يسببوا لنا الحرج...، قل لعثمان إنّنا سنقيم العرس في "چَاقِيرْ بِينَارْ"، فليتفضل وليأتِ، أمّا نساؤهم وبناتهم فإنّنا ننتظرهنّ أيضًا.

ابتهج حاكم "بِلَجِيكْ" كثيرًا لهذا الأمر، وبدأ القيام بالاستعداد للعرس، عاد مِيخَالْ إلى "سُوغُوتْ"، ودخل خيمة عثمان غازي.

- أهلًا يا مِيخَالْ، ما الأخبار؟

- لقد نقلتُ طلباتك إلى الحاكم -يا سيّدي- وقد قبلها جميعًا، وقال فليحضر عثمان غازي نساءهم وبناتهم.

- ماذا قال عن إقامة العرس في ساحة خضراء؟

- قال إنّه سيقيم العرس في "چَاقِيرْ بِينَارْ".

- أحسنت يا كُوسَه مِيخَالْ، اذهب الآن، وستأتي عندما نُعِدّ صناديق الهدايا، وستذهب بها إلى "بِلَجِيكْ".

- حسنًا، هناك شيء آخر يا سيّدي...

- ماذا؟

- إذا سمع هؤلاء الحكام بأنّني نقلت هذه الأخبار، فلن يتركوني على قيد الحياة، المسألة ليست في حياتي أو موتي، لكن إذا حدث لي شيء، فهل تعتني بعشيرتي يا سيدي؟

أمسك عثمان غازي بكتفي مِيخَالْ وقال:

- الوفاء من أخلاق ديننا -يا مِيخَالْ- لا تقلق، فعشيرتك هي عشيرتنا، وهي في أمانة الله وأمانتنا من بعد.

- شكرًا سيّدي.

بعد أن خرج مِيخَالْ، استدعى عثمان غازي كلًّا من قُونُورْ أَلْب وأَيْقُوتْ أَلْب.

- لبّيك سيّدي، لقد استدعيتنا.

- قُونُورْ، أَيْقُوتْ، لقد وافق حاكم "بِلَجِيكْ" على اقتراحاتنا، ما بعد ذلك يقع على عاتقكم؛ فأعدّوا في أسرع وقت صناديق الهدايا الأربعين للعرس.

- أمرك سيّدي.

هديّة العرس

أُعدّ في "سُوغُوتْ" أربعون صندوقًا كبيرًا هدية للعرس، وحُمِلت الصناديق على أربعين حصانًا، واستعدّت أربعون امرأة لمرافقة الهدايا.

كانت الهدايا ثقيلة حتى إنّها حُمِلت على الحُصُن بشقّ الأنفس...

حان العرس، وجاء مِيخَالْ لاستصحاب الهدايا، ورحلت معه أربعون امرأة مع عشرين حصانًا، شاهد عثمان غازي مبتسمًا ذهاب قافلة الهدايا، ثمّ قال:

- فليستعدّ الذاهبون إلى العرس في "بِلَجِيكْ".

وصلت قافلة الهدايا إلى "بِلَجِيكْ" يتقدّمها مِيخَالْ، ولم يكن في القلعة سوى عشَرة حراس أو خمسة عشر فقط، وكان الجيش جميعه في ساحة العرس، صاح الحراس على باب القلعة:

- قفوا، مَن أنتم؟

أجاب مِيخَالْ:

- أنا مِيخَالْ حاكم "خَرْمَانْ قَايَا"، أحضرتُ صناديق الهدايا الأربعين، أرسلها عثمان غازي للعرس.

فتح الحراس الباب متحرّشين بالمرافقات.

وعندما أُدخلت قافلة الهدايا، بدأ مِيخَالْ يفتح الصناديق، فقال أحد الجنود:

- هذه الهدايا لأميرنا، لكن ماذا عن المرافقات؟

فضحك جنديّ آخر ضحكة ماجنة...، ثمّ بدأ بعض الجنود يتقدّمون نحو المرافقات، ونزل جنود الحراسة في أبراج القلعة أيضًا ليأخذوا نصيبًا من هذه الغنيمة، تدخَّل مِيخَالْ:

- في رأيي من الأفضل ألا تفكّروا في مثل هذا الأمر.

فصاحوا قائلين:

- هذا لا يعنيك.

كان الجنود البيزنطيّون يتوقّعون أنّ المرافقات يخفن ويهربن بعد هذا الحديث، لكنّهنّ كنّ يقفن في مكانهنّ كأنّ شيئًا لم يحدث، كنّ يمسكن بخُمُرهن بإحدى أيديهن، ولم يكن يظهر منهن سوى عيونهنّ، طرح الجنود أسلحتهم جانبًا وساروا نحوهنّ، أمسك أحدهم بخمار مَن تقدّمت القافلة ونزعه.

وعندما نزع الجندي الخمار انعقد لسانه أمام المشهد الذي رآه؛ كان تحت الخمار جنديّ من الـ"قَايِين" ذو شارب مفتول، وإذا بالآخرين أيضًا قد ألقوا الخُمُر، فإذا هم جميعًا رجال، وكانوا قد أخفوا سيوفهم تحت خُمُرهم، خرج الجنود الآخرون من الصناديق، وسرعان ما دخل ثمانون جنديًّا من الـ"قَايِين" إلى قصر حاكم "بِلَجِيكْ".

حاول الجنود البيزنطيّون الهروب في اضطراب بعد أن قُضي الأمر؛ فأمسك الجندي الـ "قَايِي" بأول جندي جذب الخمار من قفاه وألصقه بالحائط وقال: "من أمثالنا المشهورة: ليست كلّ الطيور يؤكل لحمها؛ فلا تنسَ هذا"، وأُمسك بالجنود الفارين الآخرين وجُمعوا في الفناء، ورُبطوا وأُسروا.

أمـر مِيخَـالْ على الفور بإغلاق باب القلعة، وتمّ الاسـتيلاء على قلعة "بِلَجِيـكْ" فـي مـدّة قصيـرة جـدًّا وبسـهولة، كان مِيخَالْ يقول في نفسـه: ''عثمان غازي، يا له من رجل ذكي جدًّاا''.

عُرس غريب

قام حاكم "بِلَجِيكْ" باستعدادات كبيرة في "چَاقِيرْ بِينَارْ"، وكانت مئات الأغنام المذبوحة تُطهى على النيران المشتعلة من ناحية، ومن ناحية أخرى كان اللهـو يتواصل، والأصوات تتعالى بالأغانـي اليونانيّة، وكان الجميـع يرقصون في سعادة، أمّا الوحيدة التي لا تشعر بالسعادة في ساحة العرس، فهـي "هولوفيرا (*Holofira*)"، فقد كانت تجلس على كرسـيّ بوجه عبوس كأنّما حضرت مراسم جنازة، وعندما كان العروس يحاول التحدث معها، كانت تردّ بجفاء.

لـم يكـن الطعام قد وُزِع بعد؛ إذ كانوا في انتظار مجيء عثمان غازي، وكان حاكم "بِلَجِيكْ" يخشـى أن يقوم عثمان غازي بغارة مفاجئة؛ فأخفى جيشه جميعه في الجهة الخلفيّة من ساحة العرس، وإذا لم يستطـع القبض على عثمان غازي، فسـيدسّ له السـمّ، وخطّط أنّه في حالة عدم تمكنه من سـمّه، فسيأمر جنوده بمهاجمته؛ فسيأتي عثمان غازي إلى "بِلَجِيكْ" قطعة واحدة وسيعود مقطعًا إِرْبًا إِرْبًا.

جلس الحكام البيزنطيّون في سـاحة العرس يتحدّثون كيف سـيقتلون عثمان، قال حاكم "بِلَجِيكْ" لحاكم "يَارْحِصَارْ" بثقة في نفسه:

- لقـد أخفيـت جنـودي فـي الخلـف؛ فإذا لـم ننجح في دسّ السـمّ لعثمان، فلن أَدَعَه يخرج من هنا حيًا.

- أحسنت يا دِيكَنِيس، بعد قتل عثمان ستمتلك أراضيه.

بدأ يطلق الضحكات العالية قائلًا:

- هذا أمر سهل.

- يا لك من شيطان يا دِيكَنِيسْ!

- أنا كذلك.

بـدت قافلـة عثمان غـازي من بعيـد، وكان يقف فـي المقدّمة وخلفه النساء والفتيات، ولا يُرى بجانبه من الرجال سوى آقْجَه قُوجَه أحد قادته المسنّين، ومعه صَامْسَا جَاوُشْ.

استقبل دِيكَنِيسْ ضيوفه بحفاوة بالغة.

- أهلًا وسهلًا، حسنًا فعلتَ بمجيئك.

- شكرًا، تلبية الدعوة سُنّة في ديننا، أنت دعوتنا، فكيف لا نأتي!

- أشـكرك، أريـد أن أُعرِّفـك ببعـض الحـكام، هـذا يوهانيس حاكم "يَارْحِصَارْ"، وهذا نِيقُولَا حاكم "إِينَاكُولْ".

- أعرف آيا نِيقُولَا جيّدًا، وأظنّ أنّه أيضًا يعرفنا جيّدًا.

بعد كلام عثمان غازي، قال نِيقُولَا بابتسامة مصطنعة:

- صديقـي عثمـان، نحـن الآن فـي العرس، وهـو يعني الاسـتمتاع، من فضلك فلننحِّ العداوات جانبًا.

- إن ثورة الفيضان تهدأ، وثورة عدائكم لا تنتهي.

- يا صديقي، من فضلك فلندع الماضي جانبًا.

- أتعرف ماذا رأينا أيضًا يا نِيقُولَا؟ أنّكم تكثرون الكذب.

- صديقـي العزيـز، اتـرك هـذه الأمـور، لقـد ذاع صيتك فـي المدن البيزنطيّة، ولقد سمعتُ أنّك ملأت خزانتك في نهاية حملاتك.

- نِيقُـولَا، أنـتَ أخطـأت فـي معرفتنـا، فليس لدينـا انشـغال بالغنائم أو إحسـاس بالشـهرة أو حـرص على النـزاع أو رغبة في الاسـتيلاء على العالـم، نفعـل ما يسـتلزمه إيماننا، وإذا اعترضنا شـيء ونحـن نقوم بهذا، يكون التغلب عليه -بإذن الله- دَين في رقابنا.

تدخل دِيكَنِيس حاكم "بِلَجِيكْ" قائلًا:

- أصدقائـي، دعونـا نُعرِض عن مثل هذه الأشـياء اليوم، فاليوم وقت عرس، أي: وقت اللهو.

ثمّ أخذوا عثمان غازي إلى مكان الضيوف.

كان عثمـان غـازي يجـول بعينيـه في المـكان من ناحية، ومـن ناحية أخرى ينتظر إشارة ستأتي من قلعة "بِلَجِيكْ" على مرمى البصر.

بعد مدّة، رأى اشـتعال النار من قلعة "بِلَجِيكْ"، هذه النيران المشـتعلة على بُعد عدّة كيلو مترات أعطت الحماسة لعثمان غازي، وجعلته يبتسم، لقد فُتحت "بِلَجِيكْ"، أنجز كُوسَه مِيخَالْ مهمّته، ها قد حان دورهم الآن.

كانت النساء والفتيات اللاتي جئن مـع عثمان غازي ينتظرن مجتمعات في زاوية وهنّ يغطين وجوههنّ بإحكام شديد، ثمّ وُضـع الطعام أمامهنّ، لكن لم تقرب أيّ منهنّ الطعام، وكانت النساء البيزنطيّات يغنّين ويرقصن مـن جهـة، وهنّ ينظرن إلـى نسـاء "قَايِي" باحتقـار، وقد لاحـظ دِيكَنِيس أنّ نساء "قَايِي" لا يقتربن من الطعام.

- عثمـان غـازي، لمـاذا لا تـأكل نسـاؤكم طعامنـا؟ لا تقلقـوا؛ فإنّي أعرف ما يأمر به دينكم، هذه لحوم أغنام وليست لحم خنزير، وقد أمرت الجزارين المسلمين بذبحها، فليأكلن من دون خوف.

- هنّ لا يأكلن كثيرًا، لكن أين طعامنا؟ لماذا لم يأتِ حتى الآن؟

- سآمر بإحضاره على الفور.

أسرع دِيكَنِيسْ إلى المكان الذي يُعدّ فيه الطعام.

- أيّها الحمقى، ألم تستطيعوا أن تعدّوا طعام عثمان غازي بعدُ؟ أسرعوا سيشُكّ في الأمر الآن.

- سيّدي، الطعام جاهز.

- هل وضعت السُّمّ الذي أعطيتك إيّاه كلّه؟

- وضعته يا سيّدي.

- ممتاز، أحضره على الفور.

وُضع الطعام المسموم أمام عثمان غازي، نظر سيّد قبيلة "قَايِي" إلى دِيكَنِيسْ الهرِم مبتسمًا!

- لقد عقد والدي معك صداقة -يا دِيكَنِيسْ- أليس كذلك؟

- بلى.

- لقد كنتُ حينها طفلًا، لكنّها لا تزال في ذاكرتي، وكنّا نحضر إليك أملاكنا الثمينة جميعها قبل الذهاب إلى "دُومَانِيجْ"، وعندما نعود كنّا نستردها منك، وكان والدي ﷺ يعطيك هدايا في مقابل هذه الخدمة.

- نعم، هذا صحيح يا عثمان!

- حسنًا، هل أنت شخص ذكيّ يا دِيكَنِيسْ؟

- بلا فخر، هكذا يقولون.

- إذا كنتَ ذكيًا، فأنا داهية، إذا كانت الحيوانات تدرك السُّمَّ، فهل تظنّ أنت أنّ سيد "قَايِي" أحمق لا يدرك الأطعمة المسمومة؟

ارتبك دِيكَنِيسْ فجأة، وكاد يقول شيئًا، لكنّه لم يستطع.

- أيّ سُمّ يا عثمان؟

- متى يُرى المرق أزرق يا دِيكَنِيسْ؟

ضرب عثمان غازي الصينية التي عليها الطعام وأسقطها، وسُمعت صيحة عثمان غازي في أنحاء "چَاقِيرْ بِينَارْ" كافّة:

- هيّا، يا الله!

كان البيزنطيّون يحاولون تفسير ما يحدث، ماذا يستطيع عثمان غازي أن يفعل برَجُلَيْه؟

في هذه الأثناء، ألقت النساء والفتيات اللاتي كنّ ينتظرن بهدوء في زاوية، خُمُرهنّ فجأة؛ تحير دِيكَنِيسْ في أمره، كان يظهر من تحت الخُمُر شجعان "قَايِي" ذوو الشوارب الكثيفة وفي أيديهم سيوفهم القصيرة؛ ركبوا خيلهم بسرعة، وأفسدوا العرس، فأمسك قُونُوزْ أَلْب بدِيكَنِيسْ، ثمّ وضع سيفه على رقبته:

- سيّدي، مرني لأقطع رأس هذا المجرم.

- كلا يا قُونُوزْ أَلْب، رغم أنّه حاول دسّ السُّمّ لنا، لكنّنا لا نقتل صاحب الدار.

ترك قُونُوزْ أَلْب دِيكَنِيسْ، بيد أنّ هذا كان جزءًا من مؤامرة معدّة مسبقًا.

ذُهل دِيكَنِيس؛ وأمر جيشه الذي أخفاه منذ الصباح بالهجوم قائلًا:

- اهجموا يا جنودي بحقّ عيسى!

هجم جيش دِيكَنِيس مثيرًا الغبار الكثيف، وبدأ رجال عثمان غازي التراجع بسرعة.

كان صوت دِيكَنِيس يتردّد في كلّ مكان.

- أسرعوا، اذهبوا وأحضروا لي رأس عثمان!

بدأ الجيش البيزنطيّ مطاردة جنود "قَايِي"، وكانوا على وشك اللحاق بعثمان غازي، كان الـ"قَايِيون" يشعرون كأنّ جيش البيزنطيّين خلفهم مباشرة، رغم أنّ القوات البيزنطيّة تبعد بمقدار سبعة حصن أو ثمانية.

كان الجنود البيزنطيّون يركضون بخيلهم بسعادة آملين أنّهم سينهون أمر عثمان غازي هذه المرّة، ربّما كانت ستُعطى مكافآت كبيرة لمن يحضر رأس عثمان؛ فكانوا يهجمون عليه بصفة خاصّة.

فرّ عثمان غازي بحصانه بأقصى سرعة، وسُمع صوته:

- قفوا أيّها الجنود!

وقفت قوات الـ"قَايِين" الهاربة بأمر عثمان غازي، ثمّ وقف الجيش البيزنطيّ أيضًا، لم يستطيعوا تفسير ما يجري، تُرى لماذا وقف الرجال الذين فرّوا قبل قليل؟

لم يتوانوا في فهم إجابة أسئلتهم، خرج جنود "قَايِي" من الاتجاهات كلّها، وأمطروا البيزنطيّين بوابل من السهام، وحوصر الجيش البيزنطيّ، وقُضي عليه سريعًا.

الأميرة العروس

بدأ دِيكَنِيسْ يرتاب لغياب جيشه مدّة طويلة، أمّا الحكام البيزنطيّون الآخرون، فقد فرّوا على الفور من الخوف، فحدَّث نفسه قائلًا: "يا لهم من جبناء! حاولوا قتل عثمان، وعندما لم يستطيعوا الإمساك به لاذوا بالفرار"، ثمّ توجّه نحو القلعة حيث قصرُه، قائلًا: "فلأنتظر الجيش في القصر"، وكان باب القلعة مغلقًا.

- أيّها الحراس، افتحوا الباب!

لم يُفتح الباب، فنادى بصوت أكثر حدّة هذه المرة:

- إني أخاطبكم، هل أنتم نائمون؟ افتحوا الباب!

وما كان الباب يُفتح ألْبتّة، وما كانت أصوات الحراس حول دِيكَنِيسْ لتغير الموقف، ولم يُفتح الباب.

بعد مدّة، جاء صوت كُوسَه مِيخَالْ من الأعلى:

- يا دِيكَنِيسْ، لا تَصِحْ، فأنا لا أنوي أن أفتح لك الباب.

- إنّها قلعتي، فماذا يعني هذا يا مِيخَالْ؟

- فلأخبرك يا صديقي، هذا يعني أنّ الـ"قَايِين" قد استولوا على قلعتك.

احمرّ وجه دِيكَنِيسْ من الغضب، وسرعان ما وجد نفسه في عزلة شديدة، فقال مِيخَالْ وهو يشير إلى عثمان غازي ورجاله الذين يغذُون بخيلهم:

- يا دِيكَنِيسْ، انظر خلفك لديك ضيوف، فلتهتمّ بهم.

عـاد عثمـان غـازي إلى سـاحة العـرس، وأمر بجمـع الغنائـم منها، وأرسـلها إلـى القلعـة، وفـي هذه الأثنـاء، كانت فتاة في الخامسـة عشـرة من عمرها ترتدي ثوب الزفاف، تشـاهدهم في دهشـة وإعجاب، وعندما رأت عثمان غازي يمرّ بجانبها، أخذت تتوسل إليه.

- أرجوك، لا تقتلوني.

- لا يجوز في ديننا التعرّض للنساء ولا الأطفال يا ابنتي، فلا تخافي.

- شكرًا سيّدي.

- مَن أنتِ؟

- أنا هولوفيرا، ابنة يوهانيس أمير "يَارْحِصَارْ".

- أين يوهانيس؟ لا أراه هنا.

- لقد فرَّ يا سيدي.

- إذًا لا بـدّ أنـكِ الأميرة التي كانت سـتُزوج من ابن حاكم "بِلَجِيكْ"، أليس كذلك؟

- بلي، يا سيدي.

- هل كنتِ تريدين الزواج بابن الحاكم؟

- كلا.

- إذًا لو أردتِ، زوّجتكِ من ابني، هل تقبلين أن آخذكِ لابني أُورْخَانْ؟

سكتت ولم تجب.

- كما تشائين.

- حسـنًا يـا سـيدي، أريد أن أعيـش معكم بدلًا من أن أكـون هنا بين هؤلاء الجبناء.

- حسنًا، إذًا استعدّي.

ثـمّ دخل عثمان غازي القلعة، واسـتقبله كُوسَـه مِيخَـالْ لدى الباب، وتعانقا.

- بارك الله في غزوتك يا سيّدي!

- وفي غزوتك أيضًا يا كُوسَـه مِيخَالْ، كلا كلا، لسـت كُوسَه مِيخَالْ، بل مِيخَالْ غازي، سأدعوك من الآن فصاعدًا بمِيخَالْ غازي!

ثمّ انتحى عثمان غازي ركنًا، وسجد شاكرًا، ثمّ رفـع يديه بالدعاء.

حمد الله قائلًا: ''يا ربِّ، إنّ غايتنا الوحيدة هي إعلاء كلمتك، وجعل رايـة النبـي ﷺ ترفرف في الأنحاء كلّها، لك الحمد أن قدَّرت لنا فتح هذه القلعة''، ثمّ جمـع رجاله في الميدان.

- أيّهـا الشـجعان، الحـرب التي خضناهـا اليوم كانت مختلفـة تمامًا عمّـا سـبقها، قـال رسـول الله ﷺ: ''الحَـرْبُ خَدْعَةٌ''، ومسـتحيل أن تكون هناك خدعة أخرى في حياتنا، فاعلموا هذا جيّدًا، "بِلَجِيكْ" منها يستخرج الحديد؛ فمِن الآن فصاعدًا سـيكون من السـهل صنـع السـيوف والتروس والأسـنّة، سنبني مسـجدًا في "بِلَجِيكْ"، ومِن الآن فصاعدًا سيُرفـع الأذان هنـا، وسـتقـع مسـؤولية "بِلَجِيـكْ" علـى عاتـق شـيخنا أَدَبَالِـي، مكَّن الله سيوفكم، وبارك الله في غزوكم جميعًا!

عندما عادوا إلى "سُوغُوتْ"، بدأت استعدادات عرس السيّد أُورْخَانْ، وأطلق عثمان غازي على هولوفيرا اسم "نِيلُوفَرْ (*Nilüfer*)"، وتزوّج السيّد أُورْخَـانْ مـن نيلوفـر في عرس هيّن سـاذج، ثمّ أسـلمت السـيّدة نيلوفر، وصارت عروسًا سيُذكر اسمها بعد قرون بأعمالها الخيريّة.

نظر عثمان غازي إلى الزوجين بعين باسـمة، ودعا لهما قائلًا: ''بارك الله لكما وجمـع بينكما بخير''.

فتح "إِينَاكُولْ"

سيّدي، لقد نفد صبرنا ممّا قام به حاكم "إِينَاكُولْ"، ولا نرى بعد الآن حلًّا سوى الاستيلاء على قلعته.

كان عثمان غازي يفهم حماسة الشباب، ولقد جاء الدور الآن على "إِينَاكُولْ" قلعة نِيقُولَا...، وكان من الواجب إعطاء الدرس اللازم لنِيقُولَا الذي ينكر حقّ الحياة للمسلمين في أراضٍ يسيطر عليها؛ فقد كان رأس فتنة حيكت على الـ"قَايِين" منذ سنوات، وقديمًا عندما كان الـ"قَايِيون" يصعدون للهضبة في "دُومَانِيجْ"، كان ينهب أملاكهم، وأخيرًا كان نِيقُولَا أيضًا هو مَن فكّر في القضاء على عثمان غازي في العرس.

كان شباب العشيرة يشحذ بعضهم عزيمة بعض قائلين: "فلنضيّق الأرض على نِيقُولَا، ولنجعله يعاني هذه المرّة عشرة أضعاف ما جعل آباءَنا يعانونه، وسيرى!"؛ كان الإحساس بالانتقام يزداد لدى القادة أيضًا.

جمع عثمان غازي قادته في تكيّة الشيخ أَدَبَالِي في "أَسْكِي شَهِيرْ"، وكان في الحجرة بساط كبير، والفُرُش والوسائد على الجوانب، جثا عثمان غازي وقادته يستمعون إلى أَدَبَالِي.

بدأ أَدَبَالِي درسه قارئًا بعض آيات من القرآن كما يفعل دائمًا، قرأ في ذلك اليوم آيات من سورة المائدة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٨)، بعد أن انتهى من القراءة قال:

"لا تسعد أيّة دولة بالبغض؛ فالمسلم لا يكون أسيرًا لكراهيته وغضبه ولا يتخلّى عن العدل، وحال دولة تهجر العدل يشبه عربة خرج حصانها عن نِيرها؛ فلا يمكن الوصول بها إلى أي مكان، فغضبُ الكراهية يدفع إلى ارتكاب أخطاء كثيرة، فكراهية الأمس التي في قلوبكم والنصر الذي رأيتموه اليوم حذارِ ثم حذارِ أن يجعلاكم تنسون الله ورسوله ﷺ لحظة واحدة؛ لأنّ ناسًا لا يعرفون العدل ويجهلون العفو تَعِسُوا ولم ينالوا نصيبهم من الإسلام، ولقد قال رسولنا الكريم ﷺ: "سَيُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا"، فبادروا أنتم أيضًا إلى إعلاء كلمة الله في أنحاء العالم كلّها بكلّ ما أوتيكم من قوة، وانقلوها كي يستطيع أن يكمل مسيركم أحفاد سيأتون من بعدكم أيضًا".

بعد الدرس قبّل عثمان يد حَمِيه، وطلب منه الدعاء، ثمّ عاد برجاله إلى "سُوغُوتْ"...، كان أَدَبَالِي قد أدرك ببصيرته ما سيحدث، ومنع الـ"قَايِين" من ارتكاب خطأ كبير، فكانت "إِينَاكُولْ" ستُفتح لا محالة، لكنّ هذا الفتح كان لنشر دعوة الله، لا لكراهية الماضي، فاستحيي القادة من أنفسهم عقب كلام أَدَبَالِي.

ثم جمع سيّد "قَايِي" قادته مرة أخرى، وبحث معهم فتح "إِينَاكُولْ".

- لا يمر يوم من دون التحدث في عشيرتنا عن فتح "إِينَاكُولْ"؛ فهل حان بعدُ وقت فتح "إِينَاكُولْ"؟

- أنت تقول الحقّ يا سيّدي، فلن نذوق طعم الراحة هنا قبل فتح "إِينَاكُولْ".

ثم توجّه إلى قادته وسألهم:

- هل يفكّر قادتي الآخرون هكذا أيضًا؟

أبدى جميع القادة في الاجتماع رغبتهم في فتح "إِينَاكُولْ".

بعد أن استمع عثمان غازي إلى آراء الحضور أعلن قراره:

- ستُفتح "إِينَاكُولْ" إن شاء الله!

ووسط دعائهم بأن يقدِّر الله لهم الخير، واصل عثمان غازي حديثه مجدَّدًا:

- طُوزغُوث أَلْب...

- تفضل سيّدي!

- فتح "إِينَاكُولْ" موكل إليك، فليبارك الله غزوتك!

- أمرك سيّدي.

وصلت قوات الـ"قَايِـن" تحت قيادة طُوزغُوث أَلْب إلى مشارف "إِينَاكُولْ"، وكانت "إِينَاكُولْ" تحاول المقاومة وحدها، وبعد عدّة أيام جاء السيّد عثمان أيضًا إليها، ظهر نِيقُولَا فوق الأبراج، وكان يصيح تجاه عثمان غازي:

- عثمان، غادروا هذا المكان في الحال، وإلا فلستُ مسؤولًا عمّا سيحدث! لقد كنتم بالأمس القريب بدوًا بائسين آخذ منكم الجزية، فبأيّة جرأة تحاصرون قلعتي الآن!

التفت عثمان غازي نحو الحاكم الهَرِم، وأجابه:

- نِيقُولَا، إنّك لا تزال تعيش في الماضي، أمّا نحن فننظر إلى الحاضر، فلم يعد هناك بدو كنت تنهب أموالهم بقطع الطريق، أنت الآن بين يدي قبيلة "قَايِي"، وإذا طلبتَ العفو، فلن يصيبك ورعيّتك أذى، فإن أردت المقاومة، فكما تشاء.

- لن تستطيع أن تقبض عليّ أو تستحوذ على قلعتي يا عثمان.

- أنا عثمان بن أَرْطُغْرُولْ غَازِي سيّد عشيرة "قَايِي"، والاستيلاء على هذا المكان فرض عليَّ.

كان نِيقُولَا يقوم بمساعيه الأخيرة، ويلعب بورقته الرابحة، ولم تكن "إِينَاكُولْ" في حال يسمح لها بالمقاومة، وفي النهاية لم تستطع القلعة أن تصمد أكثر من ذلك، واستسلمت للـ"قَايِين".

دعا سيد "قَايِي" وابتهل كثيرًا، وكان يحمد الله، وبهذا الفتح انتهى إزعاج نِيقُولَا وخطر "إِينَاكُولْ"، وبهذا النصر قد وفّى عثمان بوعد أعطاه لأَرْطُغْرُولْ غَازِي عندما كان طفلًا.

بدأ الناس يطلقون على الـ"قَايِين" (أبناء عثمان)، كانت أعمال العشيرة التي يرأسها سيّد شجاع، قد فاقت خيالهم، فبدأت إمارة عثمان تنمو بسرعة على إثر فتح "إِينَاكُولْ"، وكان السيّد الشجاع يردّد نصيحة أَدَبَالِي له:

- لا تمسّوا دين الأهالي في "إِينَاكُولْ"، ولا تتعرّضوا لكنائسهم، ولا تسلبوا حريّة أحد، ولا تتعاملوا مع أحد سوى بالعدل؛ فأهل هذا المكان صاروا أمانة لدينا، امنحوا الأرض للتركمان الوافدين إلى أراضينا، فليأتوا وليستقرّوا.

القصر

كانت غنائم عثمان غازي قد ازدادت كثيرًا، وقسّم قُونُوز أَلْب الغنائم ووضع الممتلكات في الخزينة، ثمّ جاء إلى السيّد بعد العصر.

- لقد وزَّعتُ أربعة أخماس الغنائم بين الجنود كما أمرتم -يا سيدي- ونقلتُ الباقي إلى الخزينة من أجل الحملات.

- شكرًا يا قُونُوز.

جال قُونُوز أَلْب بطرف عينيه في خيمة السيّد، كان في أحد الجوانب أربعة فُرُش أرضية أو خمسة، وخلف الفرش عدّة وسائد كليم منقوشة، ومصباح معلّق في عمود الخيمة، وعلى جانب المصباح سيف، وفي أحد الأركان ترس، وجعبة بها عشرون أو ثلاثون سهمًا، وفي مدخل الخيمة إبريق للوضوء، وحوض نحاسيّ، وأيضًا مكان صغير مستقلّ تقيم به أسرة السيّد.

- سيدي، إذا أذنتَ أريد أن أسأل عن شيء.

- تفضل، يا قُونُوز أَلْب.

- رأينا في "قَرَاجَه حِصَارْ"، وفي "مُودَانْيَا"، وفي "بِلَجِيكْ"، وفي "إِينَاكُولْ" أنّ الحكام والأمراء يعيشون في قصور كبيرة جدًّا، فلا يشعرون بالبرد شتاءً أو بالحرّ صيفًا؛ فهُم في رغد وراحة، وفي رأيي -ما دام سيد "قَايِي" ليس أقلّ منهم شأنًا- فلماذا لا تزال تعيش في الخيمة؟

- ماذا عساي أن أفعل يا قُونُوز؟

- لنبنِ لك ولأسرتك قصرًا يا سيدي، والغنائم في أيدينا كثيرة جدًّا، فلنبنِ قصرًا كبيرًا، فلا تعيشوا بعد اليوم في مثل هذه الخيام.

تغيّرت الملامح الجادّة لعثمان غازي فجأة، وأطال النظر إلى صديق دربه الماثل أمامه وابتسم قائلًا:

- أتعرف التاريخ يا قُونُوز؟

- لم أطّلع عليه كثيرًا يا سيّدي.

- لقد استمعتُ كثيرًا إلى التاريخ من الشيخ أَدَبَالِي، ففي زمن أجدادنا أُنشئت الدولة الأيوبيّة في مصر، وكان يرأسها حاكم شجاع، اسمه صلاح الدين الأيوبيّ، كان يعيش في خيمة، وقالوا له ذات يوم: "لنبنِ لك قصرًا"، فحزن الحاكم لهذا كثيرًا وقال لمن اقترحوا هذا: "كيف أعيش في القصور والمسجد الأقصى في أيدي الصليبيين!"؛ عُدّني أيضًا هكذا يا قُونُوز أَلْب، الغنائم هي منة الله علينا، وربّما ستخدم تلك الغنائم في تأسيس دولة عظيمة ذات يوم، دعها فلا تجدي لنا نفعًا.

- لكن سيّدي، غنائمنا وفيرة والحمد لله، ولن تنفد ببناء قصر.

- فليكن، صدِّقني يا أخي أنّني في خيمتي هذه أكثر راحة من الأباطرة البيزنطيّين، إنّهم لا يستطيعون النوم باطمئنان في أسرّتهم المحشوّة بالريش بسبب تشاجر بعضهم مع بعض، ويعيشون خائفين من القتل والغارات المفاجئة.

- حقًّا.

- فأنا أفضّل أن أرى رؤى المستقبل كلّ ليلة في سريري الحصير هذا، بدلًا من رؤية الجوائم كلّ ليلة على الأسرة المحشوّة بالريش.

- كما تريد يا سيدي، لقد أحضرتُ أيضًا نصيبكم من الغنائم.

- ألا تعرف أنّني لا آخذ من الغنائم؟

- أعرف يا سيّدي، أحضرتُ نصيبكم من الغنائم؛ لكي أسأل كيف نوزّعه.

- أعطِ قسمًا من الغنائم إلى أسرة أخي الأكبر سَاوْجِي ﷺ ووزّع الباقي بين أرامل الشهداء.

- لقد وزّعنا بين السيّدات الأرامل وبين الفقراء نصيبهم يا سيّدي.

- وزّع الغنائم مرّة أخرى، حتى يصل إلينا ثانية الدعاء المرتفع من القلوب الحزينة، أُسست هذه الدولة بالرؤى، وترتقي بالدعاء إن شاء الله يا قُونُوز!

- أمرك سيّدي.

- يجب إرسال جزء من الغنائم إلى حاكم سلاجقة الأناضول علاء الدين الثالث، اهتمّ بهذا الأمر يا قُونُوز.

- سمعًا وطاعة!

بعد أن خرج قُونُوز أَلْب، أخبروا عثمان غازي بقدوم رسول، فأمر عثمان بإدخاله.

- خيرًا يا فتى؟

- لدي أخبار عن دولة السلاجقة يا سيّدي.

- أيّة أخبار؟

- الأمور ليست على ما يرام يا سيّدي، عندما قام المغول الإيلخانيّون بالهجـوم تَـرَك الحاكم السـلجوقيّ عـلاء الدين الثالـث عاصمته وهرب، وترك تاجه وعرشه في مأزق.

- تعني أنّ الاستقرار والنظام في الأناضول الآن سيظلّ مزعزعًا.

- سيدي يعرف الأمر على حقيقته أكثر مني.

مـيـلاد دولـة

في الغد جمـع عثمان غازي قادته لمناقشة آخر التطوّرات، وقال لهم:

- أيّها القادة، نحن قوم نؤمن بقول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البَقَرَة، ٢/٢١٦)، حفظ الله تعالى أمّتنا وذريّتنا!

- آمين!

- لقد انهارت دولة السلاجقة في الأناضول، لكن لن يستطيـع المغول البقـاء مدّة طويلة هناك؛ فهم مثل السـيل؛ إذا لم تسـتطـع التشـبث بمكان قويّ، فسيقضون عليك، لكن ما دمنا استمسكنا بحبل الله أولًا ثمّ ببعضنا، فلـن يسـتطيـع أحـد أن يجتاحنـا، بـل أن يحركنا مـن مكاننا ولـو هاجمنا المغـول أو أكثر الكفار طغيانًا؛ إنّ إمارة "قَايِي" تكبر، و"سُـوغُوتْ" تضيق علينـا الآن، وفـي رأيي يجب الانتقال إلـى "بِلَجِيكْ" من الآن فصاعدًا، إذا وافقتم أنتم أيضًا فلننتقل إلى "بِلَجِيكْ".

آقْچَه قُوجَه:

- إرادتكم هي مطلبنا، وسـتكون "بِلَجِيكْ" مركزنا الجديد، وسـتكون سبيلًا إلى الخير إن شاء الله.

- إن شاء الله!

لم يعترض أحد من السادة الحضور في الاجتماع.

ثمّ أخذ الكلمة عبد الرحمن غازي:

- سيدي، التركمان الفارّون من ظلم المغول والوافدون من الجيرميان والإمارات الأخرى، الذين أسكناهم في "قَرَاجَه حِصَارْ" التي صارت عامرة في وقت قصير، قد أرسلوا الفقيه دُوزسُونْ، ويطلبون منكم قاضيًا للنظر في القضايا القائمة بينهم.

- هل الفقيه دُوزسُونْ هنا؟

- نعم، هنا يا سيدي.

- استدعوه.

بعد برهة حضر الفقيه دُوزسُونْ، ومثُل أمام عثمان غازي في احترام.

- أيّها الفقيه دُوزسُونْ، أنت من طلاب أستاذي أَدَبَالِي، وأعرف أنّك تتمتّع بالعلم والأخلاق الحميدة، وقد سمعتُ أنّ الناس جعلوك وسيطًا لتطلب منّي قاضيًا، في رأيي ليس من الممكن إيجاد قاضٍ أفضل منك لـ"قَرَاجَه حِصَارْ".

- أستغفر الله يا سيّدي، لقد شرّفتموني بجعلي إمامًا على "قَرَاجَه حِصَارْ"، ولا أتطلّع إلى القضاء.

- الوظيفة لدينا تُعطى لمستحقّها لا لطالبها، وفي رأيي لا أحد أجدر منك بهذا المنصب، وأرفض الاعتراض، من الآن فصاعدًا ستكون قاضي "قَرَاجَه حِصَارْ".

- سمعًا وطاعة ياسيدي، لكنّ تعيين قاضٍ يعني التعامل بشكل رسميّ، فيجب أخذ الإذن من سلطاننا السلجوقيّ.

- لقد استولينا على "قَرَاجَه حِصَارْ" بسيوفنا، فماذا قدّم السلطان السلجوقيّ في هذا العمل كي نأخذ منه الإذن أيّها الفقيه دُورْسُونْ؟

- لكنّه السلطان.

- الله أعطاه السلطنة، وكتب علينا الغزو، فليشهد قادتي جميعًا والسادة هنا أن ليس همّنا مجرّد النزاع، إنّما قضيتنا هي إعلاء كلمة الله في الأرض، ونحن نسعى لجعل راية الإسلام ترفرف في الأرجاء كلّها، حتى ترفرف راية الإسلام في "إيزنك" وفي "بُورْصَة" وفي القسطنطينيّة...

- حسنًا يا سيّدي.

- أمّا أنا سيد عشيرة "قَايِي" عثمان بن أَرْطُغْرُولْ، فلست تابعًا للسلطان السلجوقيّ بعد الآن؛ من الآن فصاعدًا لن أكون أنا وأبنائي تابعين للسلاجقة.

- سيّدي يعرف الصواب.

- أنت أيضًا من الآن فصاعدًا لن تذكر اسم السلطان السلجوقيّ في نهاية الخطبة في صلاة الجمعة، وإنّما تذكر اسم سيّد عشيرة "قَايِي" أيّها الفقيه دُورْسُونْ.

- سمعًا وطاعة يا سيّدي.

أثارت كلمات عثمان غازي مشاعر الحضور جميعًا، ولمع الضوء في عين قُونُوزْ أَلْب، وهمهم آقْجَه قُوجَه بالدعاء، أمّا كُونْدُوزْ أَلْب فرَنَا إلى أخيه الأصغر بعين دامعة، وهكذا أعلن عثمان غازي استقلاله، وهكذا أيضًا قد ألقيت على الأرض بذور دولة ستهزّ العالم ستّة قرون.

فجر الغد الممتزج بالصياح والثغاء بدا كأنّه رسول بميلاد جديد، لقد بدأ يوم جديد في عشيرة "قَايِي"، وجلس عثمان غازي على فرو الغنم يتلو آيـات من القـرآن الحكيم، وفي هـذه الأثناء كانت السـيّدة مَلْحُونْ ترتّب المـكان، وفجأة سـمعت الضجيج مـن الخارج، وفي حيـن حاول عثمان غازي أن يفسّر الموقف، سُمـع صوت من الخارج يقول:

- سيّدي، هل تأذن بدخولنا؟

- تفضل، تعالَ!

تركت السـيدة مَلْحُونْ ما بيدها وذهبت إلى القســم الآخر من الخيمة بسرعة، بدأ الضيف يتحدّث إلى عثمان غازي.

- سـيدي، لقـد اجتمعت العشـائر التركمانية كلّها والأمـراء والعلماء حولنا، وهـم ينتظرونكم.

- خيرًا، ما لي وأمرهم؟

- تعالَ وسلهم، إذا شئتَ يا سيّدي.

عندما خرج عثمان غازي، لـم يصدّق عينيه؛ فمئات من رؤساء العشائر والقادة والعلماء قد اجتمعوا يهتفون كلّهم أجمعون: "يحيا عثمان غازي! يحيا عثمان غازي!" كانت الموسيقى تُعزف من جانب، والطبول تُقرع.

هـذا يعنـي إعـلان التبعيّـة، وكان التركمـان المجـاورون والأمراء قد سـمعوا أنّ عثمـان غازي أعلن اسـتقلاله فجـاؤوا للانضمـام إليه، أوقف عثمان غازي الموسيقى والحشد بإشارة من يده، ثمّ قال:

- أيّهـا السـادة والشـجعان، إنّ عشـيرة "قَايِـي" هـي أمانـة ورثتُهـا عـن والـدي أَرْطُغْرُولْ غَـازِي، وعندما أموت سـيتحمّل ابني المسـؤوليّة

من بعدي، وكانت أمنية أبي أن يصبح الـ"قَايِيون" دولة واليوم خطا الـ"قَايِيون" أولى الخطوات كي يؤسّسوا دولة، فعسى ألا يخذلني الله تعالى وإياكم!

ابتهج الحشد أكثر لهذه الكلمات، وبدأت الطبول تُقرع بحماسة أكبر، وكأنّ الجميع كان يحتفل باستقلال عشيرة "قَايِي".

وعلى وفق عادة لـ"أُوغُوزْ"، أَجْلَسوا عثمان غازي على لبدة بيضاء، وأمسكوا طرف اللبدة ورفعوه تسع مرات ثمّ أنزلوه، ورفع الجمع سيوفهم في الهواء وهم يهتفون بأعلى أصواتهم "يحيا عثمان غازي! يحيا عثمان غازي!"، ثمّ مثُل سادة العشيرة واحدًا واحدًا بين يدي عثمان غازي وأقسموا يمين الولاء.

وقف السادة بين يديه يقولون: "سنظلّ نحن وعشيرتنا أوفياء لكم ولإمارتكم".

تقلد عثمان غازي سيفه والفقيه دُورْسُونْ يدعو، وهذا يعني أنّ السيّد هو الحاكم الوحيد، وبدأ الجميع يؤمّنون على دعاء الفقيه دُورْسُونْ:

– جعلك الله أنت وإمارتك على طريق الحقّ والعدل، وكتب لك الجهاد دائمًا في سبيل الدين، بارك الله لك ولعشيرتك في الإمارة!

الفتوحات الجديدة

أصبحت إمارة بني عثمان إمارة مستقلة الآن، وقام عثمان غازي في الاجتماع الأول بتقسيم الأراضي المستولى عليها على وفق العادة الأوغوزيّة.

- عندما كان أجدادنا الأوغوز يستولون على أرض يقومون بتعيين الإداريّين من أفراد السلالة الحاكمة على هذه الأراضي، ومن الآن فصاعدًا سيشرف أخي الأكبر كُونْدُوز أَلْب على إدارة "أَسْكِي شَهِيرْ"، وولدي أُورْخَانْ على إدارة "قَرَاجَه حِصَارْ"، وحسن أَلْب على إدارة "يَارْحِصَارْ"، وطُورْغُوتْ أَلْب على إدارة "إِينَاكُولْ"، والضرائب من أنحاء "بِلَجِيكْ" هي لأستاذي وحَمِي الشيخ أَدَبَالِي، ومن الآن فصاعدًا سأقيم هنا في "يَنِي شَهِيرْ (*Yenişehir*)"، وسيكون معي أيضًا ابني الصغير علاء الدين.

بعد أن أنهى عثمان غازي هذا التقسيم واصل اجتماعه قائلًا:

- سنعمل ما يلزم من أجل تنمية "يَنِي شَهِيرْ"، ولِيُبنَ أولًا الجامع والحمّامات.

- أمرك سيدي.

- أيّها الشجعان، أرى أن تكون "إِيزْنِيكْ (*Iznik*)"[٣٢] من الآن فصاعدًا أول أهدافنا، فما رأيكم؟

أعرب الحضور عن استحسانهم للقرار، لكنّ حسن أَلْب قال:

- سيّدي، "إِيزْنِيكْ" هدف جيّد، لكنّي أحسّ بأنّك تخفي عنا هدفك الأساسيّ.

- في رأيك ما هدفي يا حسن؟

- "بُورْصَة".

- إذا شاءت الأقدار...، فنحن مهمّتنا الخروج للجهاد، لكنّ النصر والهزيمة أمر يعلمه الخالق بشرط ألا نبتعد عن رضا الله، ربما سيكون مقدَّرًا اليوم الاستيلاء على "إِيزْنِيكْ" وغدًا "بُورْصَة"، مَن يعلم لعل ذلك يكون...

لم يكمل عثمان غازي كلامه، واستغرق برهة في تفكير عميق كأنّه غائب في تلك اللحظة، فناداه آقْچَه قُوجَه:

- سيّدي، لقد استغرقت في التفكير، ولم تفصح عن مقصدك الأخير.

- آقْچَه قُوجَه، لقد كنتَ أوفى شخص لوالدي، إذًا تعرف مقصدي الأخير.

- كيف لا أعرفه يا سيدي! أعلم أنّ مقصدك هو أن تنال بشرى الرسول ﷺ هدفك هو فتح القسطنطينيّة يا سيدي.

- لقد علمتَها يا آقْچَه قُوجَه، علمتَها.

نظر الحاضرون بعضهم إلى وجوه بعض، وقالوا بصوت واحد:

- القسطنطينيّة!

بدأت على الفور محاولات حصار قلعة "إِيزْنِيكْ"، لكنّ القلعة كانت تقاوم...، وكلّما مرّت الأيام، كان انزعاج عثمان غازي يزداد، لم يكن ما يزعجه على الإطلاق هو العجز عن فتح القلعة، وإنّما كان داخلَه إحساس بأنّ الأمور ستسوء.

لم يمضِ وقت طويل حتى اضطرّه خبر إلى تغيير كلّ شيء من جديد، لقد وصل رسول يحمل لعثمان غازي أخبارًا حول آخر الأحوال.

- سيدي، الأمراء البيزنطيّون المجاورون يستعدّون لحملة علينا.

- حملة؟

- أجل يا سيدي، حتى إنّ بيزنطة أيضًا اتَّحدت معهم.

- يعني أنّ بيزنطة أيضًا مشاركة في الأمر!

- سيرسلون ألفي جنديّ.

توقّف السيد عثمان برهة، وفكّر، ثمّ واصل الحديث مع الرسول بشكل هادئ:

- أتعرف أيّ الأمراء البيزنطيّين سيشنّ هجومًا علينا؟

- حاكم "بُورْصَة"، وأمراء "كستل (*Kestel*)"، و"بدنوس (*Bednos*)"، و"كِيتَه (*Kite*)".

- هذا يعني أنّ أعداءنا يرغبون في القضاء علينا هذه المرّة.

- سيدي يعرف ما الصواب.

- إذًا علينا أن نعمل كلّ شيء للتصدّي لهذا الهجوم الغادر، شكرًا لك، يمكنك أن تذهب.

أحاط الضيق بعثمان غازي، وعقد ما بين حاجبيه بشدّة، واكفهرّ وجهه، وأخذ يفكّر محدثًا نفسه: "ماذا نستطيع عمله تجاه هذا العدد الكبير من الأعداء؟"؛ أخبر رفاق دربه عمّا ينوي الأعداء فعله، وفي نهاية الاجتماع أعلن عثمان غازي قراره.

- سنفك حصار "إِيزْنِيكْ" فورًا، ونستعدّ للحملة، فلنقابلهم قبل أن يهجموا، وقبل أن يتوغّلوا أكثر في أراضينا.

حلّ الليل على "يَنِي شَهِيرْ"، ولم يكن يُسمَع سوى صوت بعض الحشرات، وكانت هناك عينان لم يغمض لهما جفن كأنّما تتحدّيان النوم، عينا عثمان غازي المسهّدتان.

عندما استيقظت السيدة مَلْحُونْ قليلًا، لاحظت في ضوء المصباح المرتعش أنّ زوجها مستيقظ.

- ألم تنم بعدُ يا عثمان؟

- إنّهم يفسدون علينا النوم، يا عزيزتي.

- وما الذي يؤرقك؟

- أظنّكِ سمعتِ أن الحكام البيزنطيّين قد اتّحدوا، وتلقّوا الدعم من بيزنطة للقضاء علينا.

- أعلم، لكن إذا دبّر الجميع أمرًا، ألا يتم في النهاية ما أراده الله؟

- صحيح.

- إذًا، هيّا نَم يا سيدي، أنت دائمًا في سبيل الحقّ، وأنا أؤمن أنّ الله لن يتخلّى عنك، وأسأل الله أن يعينك.

- آمين يا مَلْحُونْ، آمين!

معركة "قُويُونْ حِصَارْ"

في أواسط شهر تموز/يوليو، كانت أنحاء البلاد تتلظّى من الحرارة، وكان جنود عثمان غازي يتبادلون مع أُسَرهم كلمات الوداع وطلب المسامحة، بعضهم كان يودّع زوجته، وبعضهم كان ينصح أبناءه ببرّ أمهاتهم، وبعضهم يقبّل أيادي الأمهات ويطلبون دعاءهنّ بالخير قائلين: "لا تحرمينا من دعائك يا أمي"؛ "هيّا في أمان الله".

ودّع عثمان غازي السيدة مَلْحُونْ، وكان القلق في عيني مَلْحُونْ، وسال الدمع منهما، لم يكن قلقها على زوجها فحسب، فقد شارك هذه المرّة في الحملة ابناها أُورْخَانْ وعلاء الدين... أستودعكم الله جميعًا.

اتجهوا إلى "قُويُونْ حِصَارْ (*Koyunhisar*)" من الجهة الجنوبيّة لبحيرة "إِيزْنِيكْ"، وقد تماوجت ألوان الشمس المشرقة عليها، وكان عثمان غازي متوترًا، ولم يكن يريد التفكير في الهزيمة؛ لأنّها قد تؤدّي إلى نهاية آماله، رأى كُونْدُوزْ أَلْب توتر أخيه فذهب إلى جواره:

- خيرًا يا سيّدي، لقد خضنا حتى الآن كثيرًا من الحروب والمعارك، فما سبب قلقك الشديد الآن؟

- لو كنّا نحارب عدوًّا واحدًا، لكان الأمر سهلًا، لكنّ مثل هذه التحالفات تقلقني يا أخي.

- أيّها البطل، الله أكبر، لا يهمّنا النصر أو الهزيمة ما دمنا نقوم بأعمالنا كلّها لرضا الله تعالى، فإن استشهدنا فسنكون غزاة في سبيل الله، فلا تحزن.

- شكرًا يا أخي.

عندما تحدث عثمان غازي مع أخيه الأكبر ارتاح قليلًا، وجمع جنوده وتحدّث إليهم:

- أيّها الشجعان، حربنا الآن لا تشبه ما سبقها، ولن نقوم بخُطّة "طُورَانْ (*Turan*)"(٣٣) أو بنصب كمين؛ لأنّ عدد العدوّ كبير؛ فلا يمكن القضاء عليه بكمين؛ وعندما يأتي الجنود البيزنطيّون إلى هذا الميدان، سنشنّ هجومًا مفاجئًا من الجهات الأربع؛ فقفوا متقاربين قدر الإمكان، فلن يستطيعوا الاقتراب منّا كلّما كنّا مجتمعين، وسيشرح لكم قادتكم ما ستفعلونه، إما أن يستمرّ الـ"قَايِيون" بهذه الحرب، وإما أن يهلكوا، أعانكم الله جميعًا، وبارك غزوتكم!

أحدثت أصوات جنود "قَايِي" دويًّا في الميدن وهي تردد "آمين!"، ولم يكن البيزنطيّون قد وصلوا إلى "قُويُونْ حِصَارْ" بعدُ، فأرسل عثمان غازي رسولًا قبل أن يأتوا كي لا يخرق العادة، وطلب منهم أن يتراجعوا، وخيّرهم بين العودة أو الاستسلام؛ فأجاب البيزنطيّون الرسول بإهانة؛ وصل الرسول إلى "قُويُونْ حِصَارْ" قبل القوات البيزنطيّة وشرح الحال لسيّده.

- سيّدي، يقول الحكام البيزنطيّون: "لماذا نستسلم لكم؟ حقيقةً أنتم مَن عليكم أن تفكّوا حصار "إِيزْنِيكْ" وأن تستسلموا في الحال".

- إنّنا لا نستسلم إلا لله، لم نرَ في هذه الدنيا الفانية قوة يمكن أن تجعلنا نستسلم، هدفهم واضح، اللهم لا تخذلنا!

- آمين.

- إليّ أيّها القادة.

حضر إلى جوار عثمان غازي كلّ من صَامْسَا جَاوُشْ، وأَيْقُوتْ أَلْب، وقُونُوزْ أَلْب، وآقْچَه قُوجَه، وكُونْدُوزْ أَلْب.

- أيّهـا القادة، سـيصل الأعداء بعد قليل حسـبما علمت؛ كما تحدثنا مـن قبـل: سـنهجم مع نزول جيـش العـدوّ الميـدان، ولن يكـون كمينًا، لن يكون هناك رماة ثابتون، ستنتظرون أمري، ثمّ تقتحمون صفوف العدوّ مثل الصقر، سامحوني جميعًا! وإني أسامحكم إذا كان لي حقّ عليكم!

تعانـق القـادة جميعهم والجنـود، وطلبوا العفو...، ثـمّ بدأت القوات البيزنطيّة تصل إلى "قويون حصار" رويدًا رويدًا مثل سحابة سوداء؛ وصاح عثمـان غازي فجـأة بأعلى صوته: ''هيـا يا الله!''؛ بدأت أصـوات الجنود العثمانيّيـن تـدوي فـي "قُويُونْ حِصَـارْ" مـردّدة في آن واحـد: ''الله أكبر، الله أكبـر!''، هجم عثمان غازي بجيشـه على العدوّ بسـرعة، وكانت أنغام الأبـواق والطبـول تدوي في الأنحاء كلّها، وسـاد صليل السـيوف وصفير السـهام وأصوات القضبان الشائكة وصهيل الخيل أرضَ "قُويُونْ حِصَارْ"، ولم تجد قوات العدوّ فرصة لتسـتجمـع قواها، وتلقّى الحكام البيزنطيّون ضربة بسرعة البرق، فاضطربوا.

كانـت قـوات عثمان غـازي تهاجـم البيزنطيّين من الجهـات الأربـع، وكانت سهام البيزنطيّين تتساقط كأنّما الجيش البيزنطيّ كلّه قد صار قنفذًا يرمي السـهام، ونشـب سـهم في قلب أحد الأبطال فـي الصفوف الأولى للجيش، فتردد صوت في "قُويُونْ حِصَارْ" ينادي ''الله أكبر!''؛ كان صاحب الصـوت "آيْدُوغْـدُو (*Aydoğdu*) بـن كُونْـدُوزْ أَلْب"، خـرّ صريعًا، وتلطّخ بالتراب، واستشهد.

رأى عثمـان غازي استشـهاد آيْدُوغْدُو، فانفطـر قلبه، وأراد أن يترجّل ويذهب إلى جواره، لكنّ الرماة البيزنطيّين لم يعطوه الفرصة، وفجأة سُمـع صوت عثمان غازي الجهير.

- هيا أيّها الأبطال؛ الله أكبر، الله أكبر!

شتَّت جيش عثمان غازي صفوف العدوّ.

أمّا "يَني شَهِيرْ"، فكان الدعاء يرتفع فيها، والأدعية تتوالى على الشفاه مرددة: "اللهم انصر جيشنا"، ويُختم القرآن مع الأدعية، وكانت النساء بأغطيتهنّ ناصعة البياض يتضرعن إلى الخالق، وكان الشيوخ ذوو اللحى البيضاء يصلون صلاة الحاجة، والأطفال الصغار يدعون لآبائهم بأكفّهم الصغيرة؛ وكما كانت القلوب تخفق معًا، كان صدى الأدعية يتردّد على الشاكلة نفسها، وكانت الأيدي تُرفع إلى السماء تطلب النصر: "اللهم لا تخزِ جيشنا أمام الكفار"؛ كانت الأيدي المرفوعة بالدعاء في "يَنِي شَهِيرْ" ترتفع على الكفار في "قُويُونْ حِصَارْ".

أخذت القوات البيزنطيّة تقهقر رغم أنّ أعدادهم تفوق الـ"قَايِين" بكثير، ولم يكن عثمان غازي يتراجع عن ملاحقتهم، كانت ملاحقة دمويّة، دفع ثمنها كثير من الشهداء...

عندما لاح من بعيد جبل "دِينْبُوزْ (*Dinboz*)"[٣٤]، أدرك عثمان غازي أنّ الحرب أوشكت تنتهي؛ وكان الحكام البيزنطيّون قد جاؤوا بصلف كبير إلى ميدان القتال، فإذا بهم يبحثون الآن عن مهرب، ومَن استطاع منهم الفرار لجأ إلى قلعة "إِيزْنِيكْ"، وتشتّت الجيش البيزنطيّ، وصارت "قُويُونْ حِصَارْ" أول نصر حقيقيّ لعثمان غازي على البيزنطيّين، وكان عثمان غازي يتصبّب عرقًا، وتذكّر آيْدُوغْدُو، تُرى هل ما زال على قيد الحياة؟

علا رثاء في آن واحد من بعيد، رثاء يتردّد صداه من جبل "دِينْبُوزْ".

سأل قائلًا: "ماذا هنالك، ما هذا الرثاء؟".

استطاع جندي شابّ أن يقول: ''سيّدي...'' لكنّه لم يستطع أن يكمل، وأطرق...

كان عثمان غازي قد أدرك أنّ آيْدُوغْدُو قد استشهد، ورأى أخاه الأكبر كُونْدُوزْ أَلْب من بعيد قد جلس وحيدًا تحت شجرة يبكي.

تحيّر عثمان غازي في مكانه، شهيد آخر قد سقط، أولًا ابن أخيه بَايْقُوجَه، ثمّ أخوه الأكبر سَارُوبَاتُو، والآن آيْدُوغْدُو قرّة عين أخيه الأكبر كُونْدُوزْ أَلْب صقر ميادين القتال، البطل ممشوق القوام، تِرب ابنه علاء الدين.

ذهب راكضًا إلى جوار كُونْدُوزْ أَلْب، وبحث عن شيء يقوله، ماذا يمكن أن يُقال لقلب فجع في ولده، لم يتمكّن سوى من قوله ''أخي!'' وعانقه، ما الداعي للحديث، فقد كان الدمع يعبّر عن كلّ شيء، والجنود يرددون: ''إنّا لله وإنا إليه راجعون''.

كان الجنود العثمانيون سيواصلون الزحف، وستستمرّ الفتوحات؛ لأنّ الميت لا يعود، وعندما عادوا إلى "يَنِي شَهِيرْ"، اختفت بهجة النصر من وجوههم.

خيّم الحِداد على منزل كُونْدُوزْ أَلْب، ولم يبقَ سوى آثار تذكر بـ"آيْدُوغْدُو": فرس وسيف وقوس وبعض السهام.

فكّر عثمان غازي في كُونْدُوزْ أَلْب أكبر إخوته، الحفيد العظيم الذي أحيا اسم جده... إنه بطل استهان بأن يكون سيّدًا أو رئيسًا أو سلطانًا، واستطاع أن يؤثر أخاه الأصغر، إنه شجاع يمكنه أن يطيع أصغر إخوته ويحارب تحت قيادته؛ أمّا تضحيته هذه المرّة، فكانت أبعد من ذلك؛ لقد أُضيف اسم آخر لشجاعة كُونْدُوزْ أَلْب: والد الشهيد!

الخطر المغولي

"أيّها الأَوْغاد العاجزون! عاقبكم الربّ جميعًا!".

عندما صاح الإمبراطور البيزنطيّ "أندرونيكوس (*Andronikos*)" بصوت يدوي في قصر بيزنطة، كان الواقفون أمامه ينتظرون في خوف، فواصل الإمبراطور الصياح في غضب:

- بيزنطة تنهار، الأراضي التابعة لي تضيع واحدة تلو الأخرى، وعشيرة رحّالة تشتّت قواتنا في "قُويُونْ حِصَارْ"، ولا نستطيع أن نفعل شيئًا، و"إِيزْنِيكْ" تخرج عن سيطرتنا، وصار الأتراك بحرًا يحيط بي، يريدون أن يغرقوني، وأنتم تقفون أمامي مثل تماثيل روما، جِدوا حلًّا لهذه المشكلة وإلا...!

نظر الوفد بعضهم إلى بعض، ثمّ تحدّث أحدهم:

- سيّدي الإمبراطور، لديّ فكرة.

- ما هي؟

- نطلب المساعدة ضد عشيرة عثمان والأتراك الآخرين من دولة أقوى منهم.

- وما الدولة التي ستساعدنا؟

- سيدي، إذا زوجتم أختكم "مارا (*Mara*)" مِن "خدابنده (*Hüdabende*)" حاكم المغول الإيلخانيّين، سنحصل على دعم المغول، وهكذا لن يستطيع الأتراك الاستحواذ على أراضينا.

- نعم، ليست فكرة سيّئة على الإطلاق.

بعد أربعة أشهر، حكى الرسول هذا للمجلس الاستشاري برئاسة عثمان غازي قائلًا: زَوّج الإمبراطور البيزنطيّ أندرونيكوس أخته من الحاكم الإيلخانيّ، وسيتلقّى المساعدة العسكريّة من الإيلخانيّين؛ فعلت الأصوات بين الحاضرين مردّدة:

- يا ويلتاه!

تنهّد عبد الرحمن غازي وهمهم قائلًا:

- الله أعلم، لكنّ نهايتنا قد حانت.

وأطرق الآخرون، وتأوّه آقْچه قُوجَه قائلًا:

- لقد هربنا من ظلم المغول وجئنا هنا، لكنّ هذا الظلم لن يتركنا.

هذا الخبر عصف بأجواء باردة في الاجتماع، فعبست الوجوه وخيّم عليها التشاؤم، وصمتوا جميعًا واستغرقوا في التفكير...، كان عثمان غازي يرى الحال الذي آل إليه رفاق سلاحه فقال:

- أيّها الرفاق، الله أكبر وهو معنا، فحذارِ أن تقنطوا من عون الله، أعلم أنّ المغول كانوا دائمًا مزعجين لنا، لكنّ أول ما سنقوم به من عمل الآن هو اتخاذ التدابير اللازمة حيال هذا الخطر، وسنأخذ حِذْرنا أولًا، ثمّ نتوكل على الله، وأعلم أيضًا أنّ المغول ليسوا المغول القدامى، فأولئك الذين أَبعدوا أجدادنا عن أرضهم ووطنهم ليس لهم وجود الآن؛ فالمغول مثل مريض على شفا الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة، وإنّي تأكّد لديَّ أنْ لن يصيبنا خطر منهم بإذن الله.

كان الحاضرون قد اطمأنوا قليلًا، فتحدّث قُونُوزْ أَلْب:

- ما خطة سيدي لمواجهة المغول؟

- إذا كانوا سيأتون، فتجب مواجهتم في مكان بعيد عن هنا، أي: في ضواحي "قَرَه حِصَار".

قال أَيْقُوتْ أَلْب في دهشة:

- سيّدي، "قَرَه حِصَار" ليست تابعة لنا!

- حسنًا، إذًا اتخذوها هدفًا لكم.

علت وجهَ أَيْقُوتْ أَلْب وقُونُوزْ أَلْب ابتسامة.

- إذا أمر سيدي فلنبدأ في الحصار بإذن الله.

- أنا أيضًا أرى أنّ بقاءكم هنا الآن إهدار للوقت.

بعد شهر جاءت البشرى بالاستيلاء على "قَرَه حِصَار"، وعمّ الفرح في "يَنِي شَهِيرْ"، وحمدوا الله الذي مَنَّ عليهم بنصر آخر.

وغدت "قَرَه حِصَار" الآن مكانًا للرباط، وكان عشرات الحراس يرابطون على طريق "إِيزْنِيكْ" - "إِيزْمِيتْ (*Izmit*)"[٣٥] ليل نهار لمراقبة أي عدو مباغت، ويتناوبون الحراسة ليلًا ونهارًا تحسبًا لقدوم جيش المغول، لكن لم تكن هناك أيّة تحركات من المغول، وكان عثمان غازي ينتظر متأهبًا حذرًا محتاطًا، وهذا الانتظار قد يستمرّ ساعات وأيامًا وشهورًا.

كان هناك انتظار آخر في القسطنطينيّة، انتظار على أمل أن يأتي جيش المغول للمساعدة ويوقف عثمان غازي، وكان صوت الإمبراطور يدوي في القصر البيزنطيّ وقد احمرَّ وجهه من الغضب قائلًا:

- اللعنة!

كان يستمع للرسول القادم من المغول، وكلّما تحدث الرسول اشتدّ غضب الحاكم الهرِم.

- سيدي، لقد قال صهركم خدابنده خان: إنّنا نحارب المماليك الآن، ولا نهدأ بسبب الصراع مع التمردات الداخليّة؛ فلا يمكننا المجيء إلى "إيزْنِيكْ" الآن، أبلغوا سلامي إلى الإمبراطور.

قال الإمبراطور صائحًا:

- عاقبه الربّ، متى يأتي لمساعدتي، أعندما يستولي الـ"قَايِيون" على القسطنطينيّة؟

ثمّ أمر بطرد الرسول.

وسرعان ما ألقيت على مسامع عثمان غازي أخبارٌ سارّة: ''المغول يحاربون المماليك، ولديهم اضطراب في شؤونهم الداخليّة، ولن يستطيعوا المجيء إلى "إيزْنِيكْ"''؛ ولما سمع هذه الأخبار تنهّد وقال في نفسه: لقد حان أوان التوجّه نحو الأهداف الأخرى.

صار طريق "إيزْمِيتْ" مُمهّدًا بعد حرب "قُويُونْ حِصَارْ"، وتمّت فتوحات جديدة، لكنّ المدينة التي في قلب عثمان ليست هذه، لقد صارت له عشقًا وحلمًا، وصارت حبًّا زمرديًّا في الفؤاد.

اعتناق مِيخَالْ غازي الإسلام

جاء ضيف إلى خيمة عثمان غازي في "يَنِي شَهِيرْ"، فأمر بإدخاله؛ دخل كُوسَه مِيخَالْ الأصلع الأثط بوجهه المشرق الباسم.

- هل تأذن لي يا سيّدي؟

- تفضل يا مِيخَالْ غازي، شرّفت.

- عساكم بخير يا سيدي؟

- شكرًا، الحمد لله، ليس لدينا مشكلة سوى أننا لا نُعنَى بهذه الدنيا.

- سيدي، لا أريد أن أهدر وقتكم، أريد أن أفضي إليك بهمّي.

- تفضل.

- سيّدي، لدي همّ يزعجني سنوات طويلة ويذيب روحي مثل شمعة، إنّني أقف بجانبك منذ سنوات يا سيدي، ولقد دافعتَ عنّي وأنقذتني مرّات كثيرة، ولقد شاركتُ معك في حملات كثيرة، وحضرت كثيرًا من اجتماعاتك.

- صحيح...

- بعد أن عرفتك رأيت الإخلاص والتسامح الحقيقيّين، ورأيت تضحياتك من أجل دينك، ورأيت استشهاد أبناء إخوتك وأخيك الأكبر في هذا السبيل.

صمت عثمان غازي، وذهبت عيناه إلى السيف المعلّق على عمود الخيمة، واستغرق في التفكير، وواصل مِيخَالْ غازي حديثه.

- سيدي، لقد عرفتُ الحكام البيزنطيّين والملوك والأباطرة، لكنّ أحدًا منهم لا يستطيع أن يمضي عمرًا في خيمة، ولا يفكر أحد منهم في رعيته.

- لا أقيم وزنًا لأشياء لم تولد معي ولن أستطيع أن آخذها معي عندما أموت، فما الفرق بين عيشي في قصر أو في خيمة؟

- أنت تثبت عظمتك مرّة أخرى يا سيدي.

- ماذا تريد أن تقول يا مِيخَالْ غازي؟ أتريد أن تمدحني في وجهي فأغترّ وأعظّم نفسي؟

- كلا يا سيدي، سأختصر الحديث في هذا السؤال: تُرى ما سبب استمرارك في حياة بهذا الشكل؟

- مِيخَالْ غازي، الناس يطلقون علينا "غازي"، وهي تعني المحاربين في طريق الغزو...، لن نغترّ بهذه الدنيا القصيرة الفانية ونتغيّر، نجتهد للقيام بما يأمرنا به ديننا.

- أعلم يا سيدي، وأعلم أيضًا أنّ ما تقوم به متعلّق بفهمك لدينك وبحياتك، لقد رأيتُ -يا سيدي- حقيقة دين الإسلام، وكيف تطبّقه في حياتك، رأيته في حبّك للناس، ومودّتك، وتسامحك، وتواضعك، وصدقك، وإخلاصك، فإذا قبلت -يا سيّدي- فإنّني أيضًا أريد أن أُسلم.

نهض عثمان غازي عن الفِراء، فأمسك مِيخَالْ غازي من منكبيه، ونظر إلى وجهه المشرق وعانقه.

- يـا كُوسَـه مِيخَالْ، لقد أثَرْتَ مشـاعري، وما دام هـذا قرارك، فإنّك من الآن فصاعدًا أكثر من صديق، أنت أخي، أخي في الإسلام.

اغرورقت عينا مِيخَالْ بالدموع، لقد رأى بكاء الرجال والسـادة عندما جاور الـ"قَايِين"، وها هو أيضًا يبكي، كانت دموعه تنسـاب كينبوع يحاول أن يجد سبيلًا بين الأحجار، ثمّ مسح دموعه وحاول الابتسام:

- سيدي، من الآن نحن صديقان حقيقيّان أليس كذلك؟

- لماذا تسأل؟

- إنّكـم الأتراك لا تـرون مَن يخالفكم دينكم صديقًا حقيقيًّا، ألسـت على حقّ؟

- بلى، هذا صحيح، من أين علمتَ؟

- ألم أكن معكم منذ سنوات؟

- أنت محقّ.

- كيف يكون المرء مسلمًا يا سيدي؟

- سـتنطق الشـهادتين يا مِيخَالْ: أشـهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

أطال سيّد "قَايِي" النظر بعينين سعيدتين إلى مِيخَالْ.

- يا مِيخَالْ شتان.

- نعم سيدي.

- مـا دمـتَ قد أسـلمتَ، فالأولى لك أن تتخذ اسـمًا إسـلاميًا أليس كذلك؟

- معك حقّ يا سيدي، سمّني اسمًا مناسبًا.

- إذا رأيتَه مناسبًا، فليكن اسمك الأول عبد الله.

- إن شاء الله، فسأجتهد لأكون عبدًا لله يا سيدي؛ شكرًا لك.

- شكرًا لك أيضًا يا مِيخَالْ، عبد الله مِيخَالْ غازي.

اجتمـع أعيـان قبيلة "قَايِي" تحت قيادة عثمان غازي في تكيّة الشيخ أَدَبَالِي؛ وبعد أن صلوا المغرب، تناولوا الطعام، وجلس أَدَبَالِي على رأس المائدة، وعلى جانبيه عثمان غازي، وكُونْدُوزْ أَلْب، وآقْچَه قُوجَه، وغازي عبد الرحمن، وقُونُوز أَلْب...، نهض الـ"قَايِيون" جميعًا عن المائدة بعد أن قال عثمان غازي: "زادكم الله من فضله"، فقابل أَدَبَالِي قول السيّد عثمان بقوله "عافاكم الله وعفا عنكم".

ومـع رفـع المائدة، أخـذ أَدَبَالِي ينشـر لل"قَايِين" نفحـات من جمال روحه وعلومه.

- انتهـى إلـى الأبد عصر النبوة ببعثة سـيدنا محمد ﷺ، ولا يسـتطيع أيّ عبـد أن يطلـب مـن الله النبـوة بعـد، لكن يمكنكـم أن تطلبـوا من الله عـزم الأنبيـاء، اطلبـوا في دعائكـم أن تنزل علـى قلوبكم قطـرة من صبر الرسـول الكريـم وعزمه وشـجاعته؛ إذ كان ﷺ حينما خرج لبدر يستشـير أصحابـه، ويسـألهم: "هل هدفنا قافلة قريش القادمة من الشـام، أم جيش قريـش؟"؛ فـأراد بعض الصحابة أن يكون الهدف قافلة قريش؛ لأن القافلة لم تكن على اسـتعداد للحرب، فاسـتاء الرسول الكريم ﷺ إذ كان يريد أن يغزو جيشَ قريش الذي يسـتعدّ للهجـوم عليهم؛ ففهم الصحابة الآخرون

الموقف، فقالوا للرسول ﷺ قولًا كريمًا أبدوا به استعدادهم لأيّة تضحية حتى النهاية.

العدوّ أمامهم قوي جدًّا، فكان الرسول ﷺ يدعو: "اللّٰهُمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللّٰهُمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تُعبد في الأرض"؛ واستجاب الله لهذا الدعاء، فقد هزم المسلمون في بدر بإذن الله جيشًا يفوقهم بثلاثة أضعاف؛ فادعوا أنتم أيضًا، وسيستجيب الله دعاءكم، ولن يخذلكم أمام الجيوش وإن كانت أضعافًا مضاعفة.

في حين كان عثمان غازي يستمع إلى أَدَبَالِي، كان ذهنه مشغولًا بأسماء أماكن ستُفتَح، فقال لأَدَبَالِي:

- أستاذي، هدفنا وغايتنا واضحان، هدفنا تعريف الجميع بالله، وإعلاء كلمته في الأنحاء كافّة، ونأمل أن ننال رضاه على ما نفعل.

أَدَبَالِي:

- إن شاء الله يا سيدي.

واصل عثمان غازي كلامه:

- في الأوان الأخير لاقت قبيلتنا كثيرًا من الأذى والظلم والتنكيل، لكنّنا لم نتقهقر قطّ؛ ولم يخجلنا ما جرى لنا منذ سنوات طويلة، تعلّمنا أن نجري ونتعثّر كمُهر وليد، وعندما وقعنا وانكفأنا على وجوهنا تعلّمنا النهوض كالنسر.

- سيّدي الشجاع، أسأل الله ألا يخذلكم وألا يخذل الذين ينتظرون بفارغ الصبر بشائر نصركم.

- آمين يا أستاذي، إنّنا في حاجة إلى دعائكم دائمًا، هل تأذن لنا؟

- تفضّل يا سيدي.

وتمضي الأعوام

تتوالى الأعوام كأنّما يسابق بعضها بعضًا، وبلغ عثمان غازي السادسة والخمسين من العمر، وقد ابيضّ شعره ولحيته، وربّما فقد قوّته القديمة، بل ربّما لم يعد يستطيع أن يركب الحصان كما كان في الماضي، لكنّ قلبه كان مختلفًا تمامًا، ففي كل عام يمضي كانت هناك رياح تُشْعل شرارة الحماسة في قلبه.

تحدّث السيد عثمان في الاجتماع المنعقد مع القادة عن مسيرتهم قائلًا:

- أيّها الشجعان والقادة، لقد كنّا عشيرة ذاتَ أربعمائة خيمة جاءت مع والدي أَرْطُغْرُولْ غَازِي بالأمس القريب إلى "سُوغُوتْ" و"دُومَانِيجْ"، وقد قدّر لنا الحقّ -تعالى- أن صرنا إمارة بعد عشيرة، صرنا عشرة بعد أن كنّا واحدًا، فكبِرنا وصرنا مائة بعد أن كنّا عشرة، وصرنا ألفًا بعد أن كنّا مائة، لكنّ هذه الزيادة يجب أن تكون من أجل نشر دين الله، وإلا فإذا بالغنا في قدر أنفسنا في عيوننا، فإنّنا لن نتمكن ولو من الاستيلاء على ١٠٠/١ من الأراضي التي كُتبت لنا اليوم.

آقْچه قُوجَه:

- معك حقّ يا سيدي.

واصل عثمان غازي حديثه:

- أيّها الأبطال، إذا كنّا سنستطيع أن نخدم الإسلام، فإنّ هناك معنى للبقاء في الدنيا، وإلا فبطن الأرض خير لنا من ظهرها، حان الآن دور

"بُورْصَة"، يجب أن ترفرف راية الرسول الكريم ﷺ في "بُورْصَة" من الآن فصاعدًا.

لاحت السعادة في عيون القادة جميعهم، لكنّ أكثرهم حماسة هو عبد الله مِيخَالْ غازي، فقد كانت هذه أول حملة سيشارك فيها بعد اعتناقه الإسلام وقال في نفسه: "يجب فتح "بُورْصَة"".

شارك عثمان غازي أصدقاءه أفكاره مثلما يفعل دائمًا:

- رأيي أن نستولي على القلاع حول "بُورْصَة" قبل محاصرتها، فإنّنا إذا حاصرنا "بُورْصَة" قبل محاصرة ما حولها سنقع بين نارين -نسأل الله السلامة-.

طلب عبد الله مِيخَالْ غازي الكلمة وقد ظلّ صامتًا منذ بداية الاجتماع.

- أحسنت قولًا يا سيدي، فلنستولِ على القلاع بداية من "عُثْمَانْأَلِي (*Osmaneli*)"، ثمّ "آقْ حِصَارْ (*Akhisar*)"، و"كَيْوَه (*Geyve*)"، و"لَبْلَبِيجِي (*Leblebici*)" ثمّ نتوجّه إلى "بُورْصَة".

- إذًا علينا نحن كبار السنّ مثلي ومثلك -يا مِيخَالْ- أن نستولي على هذه القلاع، وليقم الآخرون بالاستعداد لحصار "بُورْصَة".

بدأت الجيوش تحت قيادة عثمان غازي ومِيخَالْ غازي من "عُثْمَانْأَلِي" وواصلوا الفتوحات، وفتحت "عُثْمَانْأَلِي" أولًا، ثمّ "مَكَجَه (*Mekece*)".

في السنة التالية كانت هناك حملة إلى ناحية "آقْ حِصَارْ"، وانقسم جيش العشيرة قسمين، كان قسم يسارع مع عثمان غازي في فتح القلاع المحيطة بـ"بُورْصَة"، وأمّا القسم الآخر فيقوم بالاستعدادات اللازمة لفتح "بُورْصَة".

عندما خرج السيد الشيخ من خيمته، رأى القادة مجتمعين، وقد غار شدقاه، وبدأت حمرة وجنتيه السمراوين تتحوّل إلى اللون الأصفر، وأمّا كتفاه اللذان أثقلتهما السنوات فقد تهدلا، فتحدث إلى الجنود بصوت متعب:

- أيّها الشجعان، إن شاء الله تعالى سيكون طريق حملتنا صوب "آقْ حِصَارْ".

ثمّ التفت إلى قُونُوزْ أَلْب وكان ينتظره خلفه:

- هل جاء عبد الله مِيخَالْ غازي؟

- سينضمّ إلينا في الطريق يا سيدي.

- حسنًا، إذًا هيّا أيها الشجعان، بارك الله غزوتكم.

وصلوا إلى أنحاء "آقْ حِصَارْ" بعد مسيرة يومين، وعندما رفض قائد القلعة الاستسلام، بدأ الحصار، فزادهم طول مقاومة القلعة قلقًا، غير أنّهم استمرّوا في الحصار من دون تفكير في الانسحاب، وذات صباح جاء رسول من القلعة وأخبرهم بأنّهم مستسلمون.

قال الغازي الشيخ لجنوده بعد الفتح:

- لقد قطعنا الوَتَر الحسّاس لـ"بُورْصَة" بالاستيلاء على "آقْ حِصَارْ"، ومن الآن فصاعدًا لم يبقَ أمامنا عائق آخر، فلنبدأ بـ"بُورْصَة".

في طريق العودة كان كُوسَه مِيخَالْ صاحب سر عثمان غازي يتحدّث معه.

- سيدي ألم يحن بعد وقت الراحة؟

- لا يُصطاد السمك من دون ابتلال السروال يا مِيخَالْ؛ إذا كانت الغزوة كبيرة فالضرر سيكون كبيرًا، لكنّنا ألقينا صخرة كبيرة في النهر أمامنا باستيلائنا على هذه الأماكن، فلينشئ مَن سيأتون بعدنا على هذه الصخرة جسرًا، وليسيروا من هناك إلى أهداف أكبر، فالاستيلاء على "آقْ حِصَارْ" يعني وضع الحبل حول رقبة "بُورْصَة"، وأسأل الله أن يفتحها على أيدينا.

كانت القلاع المحيطة بـ"بُورْصَة" قد سقطت واحدة تلو الأخرى، ولم تبقَ بعدُ قلعة يمكن أن تأتي لنجدتها، وجاء دور "بُورْصَة"، فحاصروها.

وفي مشاورة أُجريت أثناء الحصار، أوصى كُونْدُوزْ أَلْب أخاه:

- سيّدي، تعلم أنّ "بُورْصَة" ليست مكانًا يمكن أن يستسلم بسهولة مثل القلاع الأخرى؛ وإذا وافقت فلننشئ قلعتين إحداهما عند الينبوع الحارّ والأخرى عند الجبل، وعسى أن يؤثّر هذا أكثر في حصار "بُورْصَة".

- هل يرى قادتي الآخرون هذا مناسبًا؟

آقْجَه قُوجَه أكبر الحاضرين سنًّا:

- هذا صحيح يا سيدي؛ لأنّ هذه المدينة تبدو كأنّها ستقاوم كثيرًا.

بينما كانت "بُورْصَة" محاصرة كان بناء القلعتين من أجل الحصار يجري على قدم وساق وسط النظرات الحائرة لوالي "بُورْصَة" البيزنطيّ؛ استمرّ الحصار طويلًا، وكانت "بُورْصَة" تقاوم، وعندما وصل الخبر إلى السيد عثمان بانتهاء بناء قلعتي الحصار، استدعى السيد قُونُوزْ أَلْب وأعطاه تعليماته.

- قُونُوز، لقد عينت آقْ تِيمُور ابن أخي الأوسط سَارُوبَاتُو ﷺ لقيادة القلعة التي عند الينبوع الحارّ، وعينت بالابانجيق لقيادة القلعة التي عند الجبل، أخبرهما ليأخذا قواتهما وليستقرّا في القلاع، وفقهما الله!

كان عثمان غازي يئنّ تحت وطأة آلام الشيخوخة، وكانت آلام ركبتيه كأنّما تخفق بقلبه، وربّما كانت "بُورْصَة" أيضًا قد أتعبته أكثر، وصار الخوف يتملكه شيئًا فشيئًا، أو أنّه كان سيرحل من دون الاستيلاء على هذه المدينة، فكلّ مقدر واقع وما باليد حيلة...

هكذا مرت الشهور، وكان يخرج بصعوبة إلى الحصار بسبب ما يعانيه من آلام النقرس، ونظر طويلًا إلى "بُورْصَة"، وقال في نفسه: أيّتها المدينة المقاومة، أيّها العشق الزمرديّ، يا منية القلب، يا "بُورْصَة" ألن تستسلمي؟

أمر بأن يأتي أولاده، فجاء أُورْخَانْ وعلاء الدين وبَازَارْلُو إلى جوار والدهم، وبدأ الغازي الشيخ يتحدّث بصوت أوهنته السنون، وبينما كان يتحدّث كان يشير بيده إلى مكان ما في "بُورْصَة".

- أبنائي، إذا مت فادفنوني مكان القبة هناك، هذه وصيتي لكم.

كانت آلام النقرس تنخر في عظام عثمان غازي، وقد أمضى سنوات طويلة من عمره على صهوات الخيل، لكن الآن لم يكن هناك علاج يمكِّنه من السير بلْهَ ركوب الخيل، وعشيت عيناه، أما أذناه فكانتا تنتظران خبرًا سارًا منذ سنوات، ويتمنى لو يأتيه أحد أبنائه مبشرًا: فُتحت "بُورْصَة".

جمع قادته كما يفعل دائمًا، وكانت أعمار الأبطال الذين صحبوه من حرب إلى أخرى قد تقدمت مثله، وكأنّما كسا الثلج رأس قُونُوزْ أَلْب الذي كان شديد سواد الشعر، وكذلك لحية صَامْسَا جَاوُشْ...، وكان البريق قد خبا في عيني آقْجَه قُوجَه، وبُح صوت عبد الرحمن غازي، وكانت السنوات تمضي، وتأخذ في طريقها بعض الأشياء.

لقد انضمّ أعضاء جدد إلى اجتماعاتهم في الزمن الماضي، اعتدل عثمان غازي في مكانه، وقال بصوت متهدّج:

- أيّها القادة، أيّها الشجعان، لقد عشت معكم حتى الآن ممتطيًا صهوة جوادي، لكنّني لست في حال يمكنني أن أكون سيّدًا عليكم أو على الإمارة، وعسى ألا يتوقف بسبب تقدمي في العمر الـ"قَايِيون" المنتشرون في الأنحاء كافّة كنهر يتدفق، أعلم أنّ الماء الراكد يبدأ في التعفّن، فمن الآن فصاعدًا سيكون أحد أبنائي الأمير، وسَيُسَيِّر الأمور جميعها، فاجتمعوا فيما بينكم وقرروا مَن ستنصّبونه أميرًا.

غلب البكاء قُونُورْ أَلْب وهو يستمع إلى كلام عثمان غازي، وتجمّد أَيْقُوتْ أَلْب في مكانه، وكان عبد الله مِيخَالْ غازي يعض شفتيه ليغالب البكاء، ومعنى هذا أنّ حاكمهم وقائدهم الذي قادهم إلى الانتصارات عدّة سنوات يعلن استقالته من منصبه...

اختيار السيّد الجديد

اجتمع السادة ومريدو الأخية لاختيار سيّد جديد خلفًا لعثمان غازي، وحضر الاجتماع أيضًا أُورْخَانْ غازي والسيّد علاء الدين والسيّد بازارلو، بدأ آقْجَه قُوجَه أكبر الحاضرين سنًّا الحديث:

- حفظ الله سيّدنا، لقد قال: إنّه لن يستطيع أن يكون أميرًا بعد الآن، وأمرنا أن نختار أميرًا وأن نخبره، ويجب اختيار السيد الجديد خلال مدّة حصار "بُورْصَة"؛ فلو علم أعداؤنا أنّنا بلا أمير، فلن يعدونا من الأحياء، ماذا يقول أبناء سيّدنا في هذا الأمر؟

كان أصغر الأبناء هو السيّد بازارلو، قال مندفعًا إلى الأمام:

- إذا أذنتم، فإنّني أريد أن أتحدّث أولًا رغم أنّني أصغر أبناء عثمان غازي.

- تفضل يا بازارلو.

- إنّني أصغر الأسرة، ولا يليق بي أن أكون الأمير، وهناك إخوتي الأكبر، كما أنّني لا أرى نفسي مناسبًا لهذا المنصب، وأرى أنّ الأمير يجب أن يكون أخي الأكبر أُورْخَانْ أو أخي الأكبر علاء الدين، وإذا كان لي أدنى حقّ في السيادة، فاشهدوا أنّي أنزل عن حقّي في هذا الأمر.

تبادل النظرات السيّدان أُورْخَانْ وعلاء الدين، وبادر الأول قائلًا:

- إذا كان هناك مَن سيكون أميرًا خلَفًا لأبي، فأرى أنّه أخي علاء الدين، فماذا يرى هو؟

- أعتقد أنك مخطئ يا أخي، إنك قمت بأكبر الفتوحات في حياة والدي، إذا كان هناك شخص وحيد يمكن أن يرأس بني عثمان فإنّه أنت، وأنا أيضًا أفكّر مثل بَازَارْلُو، وإذا كان لي أدنى حقّ في الإمارة، فإنّني أتنازل عنها في حضوركم، وأريد أن يكون أخي الأكبر العظيم أُورْخَانْ هو الأمير.

فاز السيد أُورْخَانْ بالإمارة لا محالة في نهاية حديث أخوَيه، واستحسن الحضور هذا الأمر.

السيّد أُورْخَانْ:

- إذا كان هذا قرار كبارنا وإخوتي، فعلينا الامتثال، وأسأل الله ألا يخذلني أو يخذلكم بسبب قرارنا هذا.

علا قول "آمين" في نفس واحد، وقال أُورْخَانْ غازي:

- إذا كنتُ قد أصبحتُ الأمير، فإنّني أريد أن يكون بجانبي أخي علاء الدين وزيرًا.

سأل آقْچَه قُوجَه السيّد علاء الدين عن مطلب السيّد الجديد، فقال علاء الدين:

- يعلم سيّدي أنّني لا أفهم في الإمارة أو الوزارة، وأعمل بالزراعة، وإذا وافقتَ فأعطني مكانًا من سهل "كِيتَه" لأبني مزرعة هناك، وعندما يكون هناك حملة فسآتي مسرعًا، وعلاوة على ذلك فسأبادر إذا طلبت مني شيئًا، ويجب أن يوكل الأمر لأهله، فليس من الصحيح أن أتولى الوزارة بينما هناك مَن هم أجدر منّي بها.

دخلت خيمة عثمان غازي مجموعة من كبار "قَايِي" يرأسهم آقْچَه قُوجَه لإبلاغ السيد بقرار الاجتماع، وكان عثمان غازي يرقد متعبًا في

أحد أركان الخيمة، وفي أحد الأطراف حوض حديد صغير أمام الإبريق، وفي طرف آخر سيفه.

- سيدي، إذا وافقت، فلقد اخترنا السيّد أُورْخَانْ أميرًا جديدًا لنا في نهاية مشاورتنا.

- وأنا أوافق، استدعوا أُورْخَانْ وهيئة الاجتماع إلى جواري.

جاءت هيئة الشورى جميعًا إلى جوار عثمان غازي المسنّ، واجتمع آقْچَه قُوجَه، وطُورْغُوتْ أَلْب، والشيخ آخي شمس الدين، وآخي حسن، وجاندارلي قره خليل، ورجال الدولة الآخرون.

- لقد علمتُ أنّ ابني أُورْخَانْ هو مَن سيتحمل رفع رايتنا من الآن فصاعدًا، ولعله يكون سببًا في الخير، إن شاء الله سيُكتب لي أن أرى عظمة أُورْخَانْ في حياتي، وليس لديَّ شكّ في استمرار إخلاصكم لابني كما كنتم تخلصون لي، والآن إذا أذنتم، فإنّني أريد أن أتحدّث مع الأمير الجديد.

خرج الحضور في هدوء، وظلّ عثمان غازي والسيّد أُورْخَانْ وحدهما.

وصيّة عثمان غَازِي

ظلّ السيّد الشيخ مع ابنه برهة صامتَين، وكان خفق الرايات المرفرفة مع الرياح يُسمع من الخارج، كم كان عثمان غازي يحبّ هذا الصوت، وقد قال فيما مضى: "الدول ذات الرايات الخفّاقة والتي تبذل شعوبها قصارى جهدها من أجل رفع راياتها، هي دول يصعب التغلب عليها".

بدّدت كلمات عثمان غازي الصمت:

"عندي بضع كلمات لك يا أُورخَانْ، ولقد حان الأجل يا بُنيّ، لكنّي لست نادمًا أو حزينًا، لأنّني أترك خَلَفًا مثلك، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٨٥)، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٥٥/٢٧). أنا أنتقل إلى الآخرة متمنّيًا أن تحقّق أهدافك؛ تناولْ أمور الإسلام أولًا، وخذها دائمًا بعين الاعتبار، وحذارِ أن تتهاون في أمور الجهاد؛ لأنّ العمل على أداء هذا الفرض يؤدي إلى قوة الدين والدولة، اعمل على نشر ديننا؛ فهذه هي المهمّة الأولى للحاكم، طريقنا هو طريق الله ومقصدنا هو نيل رضا الله، ألا إنّ هدفنا ليس الحرب الصرفة أو فتح العالم؛ وطالما أنّك على طريق الله، فستنال فضله، وكلّما بعدت عن الله، فستهلك".

كان التعب قد نال من السيّد وهو يتحدّث، فتنهّد مرّات، وكان وجهه قد تغضن من شدّة ألم يعتصر قدميه، بدأ يتحدّث مجددًا:

"لا تولِّ أمور الدولة لغير المتديّنين، لا تولها المشغوفين بالمتع وعديمي الخبرة في شؤون الدولة؛ لأنّ شخصًا لا يخاف من خالقه لن يخجل من عباده، وكن دائمًا عادلًا، رحيمًا، صالحًا، وساوِ بين رعيّتك، احمهم، ولا تُقْدِم على شيء من دون استشارة، ولا تبدأ شيئًا لا تعرفه من دون مشاورة العلماء.

يا بنيّ، ابتعد عن كلّ ما يخالف الإسلام، وانفِ من دولتك المحرضين والحاملين على الظلم ومخالفة الدين كي لا يجرُّوك إلى الانهيار".

توقف قليلًا، وطلب كوبًا من الماء، فأحضر السيّد أُورْخَانْ كأسًا من الماء من الإبريق أمام الخيمة، وبعد أن شرب واصل وصيّته:

"اهتمّ دائمًا برجال الدولة المنفقين أعمارهم لرضا الله في خدمة الدولة، واحفظ أُسَرهم خلفهم عندما يموتون؛ لأنّك لست سيّدًا فقط، وإنّما أنت الآن والد الإمارة أيضًا، أعطِ كلّ ذي حقّ حقّه، أحسن وأكرم مَن يستحقّون واهتمّ بأُسَرهم أيضًا لا سيّما الجنود روح الدولة وأكبر معين لها، فعاملهم جيّدًا ووفر لهم الراحة، ولا تنسَ أنّ الدولة العاجزة أن تكسب جنودها لن تكسب أيّ شيء.

اهتمّ بالعلماء وأصحاب الفضيلة، فهم القوة في جسد الدولة، وبالكتّاب وأصحاب الحِرف، أكثر من تبجيلهم وأحسن إليهم وأكرمهم، وإذا سمعتَ أنّ في بلد عالمًا وقورًا أو عارفًا أو وليًّا، فحاول أن تأتي به إلى البلاد بكلام لطيف وأسلوب لائق، ووفِّر له الإمكانات كافّة، وأسكنه في أرضك كي يزداد في عهدك العلماء والعارفون في بلادك، وتنتظم أمور الدولة وتتقدّم.

حذارِ أن تركن إلى جيشك وثرائك فتغترّ، واتخذ العبرة من حالي، فرغم أنّني كنتُ كنملة ضعيفة عاجزة ولم أكن جديرًا بالأمر،

وصلتُ إلى هذه المكانة وإن لم أستحقّها، ونلت كثيرًا من لطف الله تعالى وإحسانه، فاتبع أنت أيضًا هذا المنهج.

احمِ دينَ سيدنا محمد ﷺ وأتباعه، ورعاياك الآخرين المطيعين، ومَن حادَ من سلالتي عن العدل والحقّ فأسأل الله أن يحرمه من شفاعة نبيّنا ﷺ يوم الحشر.

حافظ على العدل والإنصاف دائمًا، ولا تسمح بالظلم، وعندما تبدأ أيّ أمر فالجأ إلى عون الله تعالى؛ احفظ رعيتك من ظلم الأعداء والظالمين وقهرهم، ولا تظلم أحدًا، وابحث دائمًا عمّا يرضي شعبك وطبَقه في حياتك، واعلم أنّ كسب قلوبهم دائمًا نعمة كبيرة، ولا تنسَ أنّ زلزالًا يهزّ الأرض يهدم المنازل فقط، أمّا الزلزال الذي يهزّ الثقة بالحاكم فيهدم الدول، أستودعكم الله جميعًا".

كان عثمان غازي يطمئن أنّه يترك إمارته لبطل لن يخذله.

أمّا السيّد أُورْخَانْ، فقد تولى هذه المرّة مهامَّ كالجبال، حتى إنّه عكف ليل نهار على وضع الخُطَط للاستيلاء على "بُورْصَة".

أَدَبَالي

كانت الأيام تنساب هادئة مثل نهر "سَقَارْيَا"، وقد اشتدّ المرض على عثمان غازي، حتى صار طريح الفراش، راكدًا مثل نهر يصب في مسبح، بيد أنّه يتمنى في هذه اللحظة أن يكون على رأس جيشه على أعتاب "بُورْصَة"، كم كان يتمنى سماع أصوات: "الله أكبر، الله أكبر!"، وصهيل الخيل وأزيز السهام.

ذات يوم علا نواح شديد من الخارج، وكان البكاء يأتي من حوله، حاول الغازي أن يفهم الأمر، فنادى قُونُوزْ أَلْب، فرأى في عيني قُونُوزْ أَلْب حزنًا عظيمًا، غير أنّه كان يحاول ألا يشعر عثمان غازي بشيء.

- ماذا حدث يا قُونُوزْ، لماذا هذا البكاء؟

- لا شيء يا سيّدي، لا شيء.

- قُونُوزْ، منذ متى أنت بجانبي؟

- أعرفك سيّدًا منذ نعومة أظفاري.

- إذًا لماذا تكذب؟

أطرق قُونُوزْ أَلْب، ومسح دمعة سالت من عينيه إلى شاربه الأبيض، لكنّ عثمان غازي أصرّ قائلًا:

- ماذا حدث أم أنّ هناك خبرًا مؤلمًا وأنت تخفيه عنّي؟

نظر قُونُوزْ أَلْب أمامه ولم يجب:

- أخبرني يا قُونُوزْ أَلْب ماذا حدث؟

- هناك خبر مؤلم يا سيّدي.

- ماذا؟

- أَدَبَالِي...

- ماذا!

- انتقل حضرة أَدَبَالِي البارحة إلى رحمة الله يا سيّدي.

استوى عثمان غازي، واسترجع، وسالت من عينيه دمعتان، وكانت الدموع تسيل بخفّة، وتنساب لتشقّ سبيلها في وجه حفرت فيه السنون أودية.

- أستاذي...، أستاذي العزيز أَدَبَالِي...

ظلّ على هذه الحال شاردًا برهة، ثمّ انتبه على صوت قُونُوزْ أَلْب.

- سيّدي، أتأمر بشيء؟

- نعم يا قُونُوزْ أَلْب، أعدّوا حصاني، سأذهب إلى "بِلَجِيكْ" لحضور مراسم الجنازة.

- لكنّك يا سيّدي مريض جدًّا، كيف ستركب الحصان في هذه الحال؟

- أتريد أن تمنعني عن القيام بواجبي الأخير تجاه أستاذي؟

- كلا يا سيّدي.

- هيّا أسرع إذًا.

وفي "بِلَجِيكْ" فاضت وسالت الدموع، وأقيمت صلاة الجنازة على أَدَبَالِي وسط تكبيرات ودعاء الآلاف من طلابه، وصلى عثمان غازي

فـي الصـفّ الأول واقفًا علـى قدميه بصعوبـة، وبعد الصلاة سـأل الإمام المشيّعين:

- أتسامحون الميت؟

فردّوا بصوت يغلب البكاء:

- نسامحه!

وُوري أَدَبَالِـي الثـرى مثل كلّ فانٍ، وظلّ عثمان غازي على قبر أَدَبَالِي سـاعات بظهـره المحني وركبتيـه اللتين تئنّـان بآلام لا تحتمـل الوقوف، وهو يرنو إلى القبر طويلًا.

وضـع يده على تراب القبر، وقال: "أستاذي العزيز، إذا كان الـ"قَايِيون" قد صاروا من عشيرة إلى إمارة، فلك أكبر نصيب في هذا، فلتسامحنا، فلن ننساك أنا ومَن يأتي من بعدي".

خيّم الحزن على "يَنِي شَهِيرْ"، لكنّ الحظّ الأعظم منه كان من نصيب السيّدة مَلْحُونْ التي فقدت والدها، وحاول عثمان غازي أن يواسي شريكة حياتـه، وكانـت جنازة والدها قـد أذبلت وجهها، فقصرت به الشـيخوخة عن ذلك، ثم جلس عثمان غازي بجانب رفيقة دربه:

- البقاء لله يا مَلْحُونْ، عسى الله أن يجعل أستاذي شفيعًا لنا جميعًا!

- آمين يا عثمان، آمين...

- أتريدين مني شيئًا؟

- هل يمكن أن تدفنني بجانب أبي إذا متُّ يا عثمان؟

- لمَ تقولين هذا يا مَلْحُونْ أم إنّكِ أيضًا ستتركينني هنا وترحلين؟

- قل، هل يمكن أن تدفنني هناك؟

- حسنًا يا عزيزتي، على كل حال سيموت عثمان أيضًا ذات يوم.

صارت السيّدة مَلْحُونْ مثل وردة ذابلة، فلم تكن تقرب الطعام أو الشراب، فضعفت وأُنهكت، ولازمت الفراش بسبب آلامها، وكانت خائرة القوى، أحضروا الأطباء من المدن المجاورة، بيد أنّهم لم يجدوا لها دواء، وكانت مَلْحُونْ تفنى مثل قطعة ثلج تذوب قطرة قطرة، وكان عثمان غازي يريد أن يبقى بجانبها غير آبه بمرضه.

اجتمعت النساء حول السيدة مَلْحُونْ، كنّ يقرأن القرآن ويدعون لها، ويقمن أيضًا بإعداد العلاج المصنوع من ألف زهرة وعشب، ففتحت السيدة مَلْحُونْ عينيها برهة، فدنا منها عثمان غازي على الفور.

- مَلْحُونْ، أتريدين مني شيئًا؟

- عثمان...، إذا متُّ قبلك فستدفنني بجانب أبي في "بِلَجِيكْ"، أليس كذلك؟

- ما هذا الحديث؟ اصبري قليلًا ستتحسنين إن شاء الله.

- هل تحقّق لي آخر أمنياتي؟

- حسنًا يا عزيزتي، لا تقلقي.

عند أذان الفجر ذات صباح دوّت في "يَنِي شَهِيرْ" صرخة لإحدى مرافقات السيدة مَلْحُونْ.

- أدركونا، لقد ماتت السيّدة مَلْحُونْ!

لم يكن قد مرّ على رحيل أَدَبَالِي ثلاثة أشهر، وها هي السيّدة مَلْحُونْ قد لحقت بوالدها إلى العالم الأبديّ.

صار عثمان غازي وحيدًا الآن، كأنّ قلبه سيتوقف، كان يقف في جنازة السـيّدة مَلْحُونْ بصعوبة على قدمين يعتصرهما ألم لا يحتمل، ويدعو لها سـرًّا...، مَلْحُونْ معشـوقته في شـبابه، مَلْحُـونْ والدة أبنائـه، مَلْحُونْ أكبر معين له، لم تعد موجودة بعد.

كان قـد مضى وقت طويـل منذ أن ذبلت ألوان الدنيـا الفانية جميعها في عيني عثمان غازي، ولم يعد إلا اللونان الأبيض والأسود، لكنّ الحياة فقدت لونها الأبيض أيضًا مـع مَلْحُونْ، وبقي فقط اللون الأسود في عينيه، كأنّما كان التراب الملقى على قبر السيّدة مَلْحُونْ في "بِلَجِيكْ" يُلقى على عثمان غازي، فأظلم كلّ شيء حوله.

الوداع

أدرك عثمـان غـازي أنّ موعـد رحيله يحين شيئًا فشيئًا، وقد مضت سنوات منذ حصار الجيش العثمانيّ "بُورْصَة"، ولم تصل إليه أخبار سارّة عنها، وكان يسأل أُورْخَانْ غازي عند قدومه كلّ مرّة إلى "يَنِي شَهِيرْ":

- ماذا حدث يا أُورْخَانْ؟ ما حال الحصار؟

- "بُورْصَة" تقاوم يا أبي، لكنّني لا أعلم إلى متى تقاوم.

- اصبر، وواصـل الحصار يـا بُنيّ؛ عندما كنتُ فـي مثل عمرك، كان السـيّد أَدَبَالِـي ﷺ يقول لي: "يجب أن يتعلم السـيّد الصبـر"، وأنا أقولها لك أيضًا.

- سـأعدّه أمرًا يا أبي إن شـاء الله، فسـأحمل لك خبرًا سارًّا ذات يوم، رجاءً لا تحرمنا من دعائك.

- إن شاء الله يا بُنيّ.

قبّـل أُورْخَـانْ غازي يدي والده وخرج مـن الخيمة، رنا عثمان غازي ولـده مـن الخلـف؛ كان يتذكّر يوم مولده كأنّه بالأمـس القريب، لقد صار الآن سـيّدًا عظيمًـا، تذكر مَلْحُونْ، كم كانـت تحبّ أُورْخَانْ، وكيف كانت تنظـر إليه ليل نهار، سـالت دمعة من عينيـه، لا مَلْحُونْ بعد اليوم، كان في الحيـاة طريح الفراش، والزمن يأبى أن يمـرّ، وصار تعاقب الملوين عذابًا له، لم يعد عثمان غازي يستطيـع النهوض من الفراش، وقد تورمت ركبتاه

تمامًـا، كان يـؤدي صلواته راقدًا، ويردّد بلسـانه الأدعية والأذكار بسـبحة في يده ربّما بلغت مثل عمره.

وذات يـوم عنـد الظهيـرة، سـمـع صـوت فـارس يركـض بحصانـه في الخارج، إنّه السـيّد أُورخَانْ جاء إلى والده راكضًا سـعيدًا كأنّما تتفتح الورود في وجهه.

- أبـي...، أبـي...، لقد اسـتجاب الله دعاءنـا، فمَنَّ علينـا بـ"بُورْصَة"، فُتحت "بُورْصَة" يا أبي، فُتحت "بُورْصَة".

تذكّر عثمان غازي ابتسـامة قد نسيها منذ سنوات، وسُمعت منه جملة واحدة:

- الحمد لله رب العالمين! غزوة مباركة أيّها البطل، أخيرًا تلقيتُ هذا الخبر، سأموت مطمئنًا الآن.

سـاءت حالة عثمان غـازي كثيرًا، وكانوا يقـرؤون القرآن بجانبه على الـدوام، وكان الأطبـاء يحاولون علاجه، ولم تكن شـفتاه تغفُلان عن ذكر الله، وهـو يقـول متأوّهًا: "الله، الله، الله..." ولم يغفُل لسـانه في اللحظات الأخيرة من عمره عن ترديد كلمة "الله" التي كان يقولها مدوية في ميادين القتال.

ويعاوده أبناؤه ورجاله وقادته باسـتمرار باعتباره أميرهم السابق، لكنّ عثمان غازي كان ينفد كشمعة يومًا بعد يوم، لم يكن يجد الطمأنينة سوى مـع صوت القرآن، لقد تخطّت آلامه حدود التحمّل، وكان يتأوّه سرًّا.

خفّت آلامه كثيرًا بعض الوقت، وتحسّنت صحته، ونادى المحيطين به:

- أحضروا الماء.

فرح الجميع، كان سيّدهم قد بدأ يتحسن.

شرب عثمان غازي الماء، وسأل عن حال الجيش، وماذا يفعلون في "بُورْصَة"، وعن أحوال قادته، فأجابوه؛ استمع إلى الإجابات جيّدًا، وكلّما رأوا عثمان غازي بحال جيّد، كانوا يجيبون على أسئلته بلهفة أكبر.

استلقى السيّد مجددًا على سريره، وظنّ الجميع أنّه نائم، بيد أنّه كان قد نطق الشهادتين وأسلم روحه منذ وقت طويل، عمّ الأنين "يَنِي شَهِيرْ" مجدّدًا، وتردد صوت في الأجواء: "وَدَّع عثمان غازي هذه الحياة الفانية وأسلم روحه".

وضعوا جسده على عربة حصانه، وذهبوا به إلى "بُورْصَة" ودفنوه في هضبةٍ أوصى بها، دفن عثمان غازي في "بُورْصَة" كما البذرة، لكي يصبح نواةً لشجرة شاهدَها في رؤياه فيما مضى!

الإمارة العثمانية في زمن عثمان غازي

الهوامش

(١) أرْطُغْرُول غازي (*Ertuğrul Gazi*) (ت: ٦٨٠هـ/١٢٨١م): أبو عثمان بك مؤسس الدولة العثمانية. واسم والده هو "كُونْدُوزْ أَلب (*Gündüz Alp*)". ولا سيما أن عبارة: "عثمان بن أرْطُغْرُول بن كوندوز ألب" قد وردت في مسكوكة معدنية ترجع إلى عثمان بك. وهو ينتسب إلى عشيرة "قايي (*Kayı*)" إحدى عشائر قبيلة "أُوغُوزْ (*Oğuz*)". أما أجداده فقد جاءوا إلى منطقة "أخلاط (*Ahlat*)" أولًا في بداية فتح الأناضول، ثم تبعوا أمراء "أخلاط"، وحاربوا إلى جانبهم الجورجيين وإمبراطورية طرابزون الروم. وقد استوطنوا لاحقًا فيما حول "سوغوت (*Söğüt*) ".

توفي أرْطُغْرُول غازي وقد جاوز التسعين من العمر. ويوجد قبره على طريق "سوغوت" و"بِيلَه جِكْ (*Bilecik*)" شرقي مركز "سوغوت" بكيلو متر واحد بمحافظة " بِيلَه جِكْ".

(٢) "قُونْيَة (*Konya*)" تقع في منطقة وسط الأناضول في تركيا، وتبلغ مساحتها ٣٩,٠٠٠ كم٢ بحيث تشكل أوسع محافظات تركيا اليوم. وهي تقع في قطاع قريب من الحافة الغربية للمسطح الذي يتجاوز ارتفاعه عن مستوى سطح البحر ١٠٠٠ متر بقليل في القسم الغربي من السهل الذي يحمل الاسم نفسه.

(٣) "قَايِي (*Kayı*)": إحدى عشائر "أُوغُوزْ (*Oğuz*)" التي تنتسب إليها الأسرة العثمانية الحاكمة. وعشيرة "قايي" من أهم أفرع قبائل "أُوغُوزْ". وهي واحدة من أكثر عشائر الترك -عددًا وكثافة- النازحة إلى الأناضول من وسط آسيا موطن الأتراك الأصلي.

(٤) سَارُوبَاتُو سَاوْجِي (*Sarubatu Savcı*) بك (توفي ١٢٨٧م): ينتسب إلى عشيرة "قايي" إحدى أفرع "بوزوق (*Bozok*)" الأوغوز، وهو أوسط أبناء أرطغرول غازي الثلاثة. والأخ الأكبر لكل من كوندوز بك وعثمان غازي مؤسس الدولة والأسرة الحاكمة العثمانية.

(٥) "أَلْبْ (*Alp*)": اسم وصفة ولقب لشخص يعني في اللغة التركية: "البطل والجسور والفتى والغازي" وهو منتشر بين قبائل "أُوغُوزْ" بصفة خاصة. وقد استخدمت هذه الكلمة بشكل واسع أيضا بعد الإسلام.

(٦) معركة "كُوسَه طَاغْ (*Kösedağ*)": كُوسَه طَاغْ (أي: جبل كُوسَه) وقعت هذه المعركة

في ٣ تموز/يوليو ١٢٤٣م في إطار الغزوات المغولية بين المغول والسلاجقة، وانتهت بانتصار المغول. وبعد انسحاب المغول من الحملة الأوروبية بسبب موت الخان الأعظم أوغداي توجهوا نحو الأناضول، واستولوا على مدينة أرضروم؛ لذا قرر السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني وطلب العون من أحد أمراء الجورجيين على أن أغلب الجورجيين كانوا مع المغول، وكذلك تلقى السلطان الدعم من قوات إضافية من إمبراطورية طرابزون.

وقعت المعركة قرب جبل "كوسه" في شرق تركيا في مكان بين أرزينجان (*Erzincan*) وغوموشخانه (*Gümüşhane*)، والتقى السلطان قائد المغول في المعركة بايجو وتلقى السلطان وحلفاؤه هزيمة منكرة، وفر السلطان غياث الدين من المعركة.

بعد هذا النصر الحاسم وافق السلطان على دفع الجزية للمغول، وبقي السلاطين بعد ذلك دُمًى في أيدي المغول. وعندما مات كيقباد الثالث آخر السلاطين الروم قسم المغول الأناضول بين الأمراء الذين برز من بينهم لاحقًا العثمانيون.

(٧) "سُوغُوتْ (*Söğüt*)": المدينة الذي نشأت فيها الدولة العثمانية. وهي الآن مركز لقضاء تابع لمحافظة "بِلَجِيكْ".

(٨) "دُومَانِجْ (*Domaniç*)": تمثل في يومنا الحاضر إحدى أقضية مدينة "كُوتَاهْيَة (*Kütahya*)". وكانت فترة تأسس الدولة العثمانية مصيفا تنزل به عشيرة قايي التي كانت تعيش على الترحال. وقد تأسست الدولة العثمانية في منطقة "دُومانِج" و"سوغوت".

(٩) الحِضْب: صوت القوس.

(١٠) "بِلَجِيكْ (*Bilecik*)": مدينة تركية في منطقة مرمرة، وهي مركز المحافظة التي تقع بها. وقد فتحها العثمانيون في ١٢٩٩م. وبعد ضمها صارت مركزًا مهمًا من مراكز الإمارة العثمانية. وقد أنشأ بها عثمان غازي مسجدًا. وخصص موارد ناحية "بِلَجِيكْ" لعائلته، وترك بها عليًا ابنه الأصغر وأمه، وعين الشيخ "أَدَبالي" أمينا عليها.

(١١) تَخْتَه كُوبْرُو (*Tahta Köprü*): أُقيم على الأراضي المرتفعة عن مستوى سطح البحر ب٥٤٠ مترًا، الشديدة الانحدار في بعض مناطقها، المتوسطة الانحدار في شمال شرقي بحيرة "إينه كول (*Inegöl*)"، على الحافة الشمالية من جبال دُومانِج التي هي امتداد "أولوداغ" شرقًا. وفي جنوب "تَخْتَه كُوبْرُو" الواقع جنوب شرقي مركز "إينه كول" يوجد مركز "دُومانِج" التابع لمحافظة "كوتاهية".

(١٢) "آقْچَه قُوجَه (*Akça Koca*)": من مؤسسي الدولة العثمانية، ومن المحاربين رفاق عثمان غازي في الحرب، وقد عمل عونًا ومعينًا لأورخان غازي أيضًا. وكُلِّف بفتح "إزميت"

وما حولها عام ١٣٢٠م. فشن الغارات على ما حول "صَقَارْيَا" ونواحي "إزميت"، وتمكن من فتح بعض الأماكن بها. وقد كانت وفاة آقْچَه قُوجَه بعد عام ١٣٢٦م، وقبره موجود على قمة هضبة في "قنديرة (*Kandıra*)".

(١٣) التشبيب: أن ينشط الحصان ويقف على قائمتيه الخلفيتين رافعا الأماميتين في الهواء.

(١٤) أُوغُوزْ (*Oğuz*)": شعب تركي هم أجداد أتراك تركيا وتركمنستان وأذربيجان وإيران والعراق. وقد صُودف اسم "أوغوز" في نقوش "كُوكْ تُورْك (*Göktürk*)" أولًا. وينتسب السلاجقة إلى عشيرة "قِنِيق (*Kınık*)"، بينما العثمانيون ينتسبون إلى عشيرة"قايي (*Kayı*) ".

(١٥) طائر فِي حجم الْحمام أَحْمَر المنقار وَالرِّجلَيْنِ طيب اللَّحْم.

(١٦) يقال: "بقل وجه الغلام" إذا بدأ شعره بالنبات.

(١٧) "أَدَبَالِي (*Edebâli*)": (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٦م): أول قاض وصوفي عثماني.

وُلد في "قَرَامان (*Karaman*)". وقد أتم تحصيله الأوليّ فيها. وصار تلميذًا للفقيه الحنفي نجم الدين الزاهدي. ثم توجه إلى دمشق وتلقى العلوم الدينية على يد مشاهير علماء عصره أمثال: سليمان بن أبي العز وجمال الدين الحاصري. ولما عاد من دمشق إلى بلده اتجه إلى التصوف، فأنشأ زاوية في "بِلَجِيكْ"، وشرع يرشد الشعب هناك. وقد تعرف أَدَبَالِي على عثمان غازي في "بِلَجِيكْ". وكان عثمان غازي المحب للعلماء والصوفيين كثيرًا يذهب إلى زاوية الشيخ أَدَبَالِي في الأيام المباركة، ويركن إلى آرائه دائما في المواضيع الدينية والإدارية.

ووفقًا لرواية ثقة فإن عثمان غازي بقي ليلةً في زاوية أَدَبَالِي، ورأى في منامه: "أن بدرًا طلع من حِضن الشيخ ودخل في حِضنه، وفي الوقت نفسه شجرة نبتت من خاصرته، وأن ظلال تلك الشجرة ورفت على الدنيا، وعلت الجبال أسفل منها، وأن الماء ظهر من أسفل كل جبل منها." فلما قص عثمان غازي رؤياه على أَدَبَالِي قال له الشيخ: "لقد منحك الله تعالى السلطنة أنت وذريتك. بارك الله لك. وقد زوجتك ابنتي السيدة "مَلْخُون (*Malhun*)"". وتزوج عثمان غازي بـ"مَلْخُون" إثر تعبير أَدَبَالِي رؤياه. وإلى جانب كون أَدَبالي متصوفًا فهو أول قاض ومفتي عثماني. التقى بالعديد من فقهاء عصره، ودرّس عليهم، ونشّأ وربّى عددا كثيرا من الطلاب. ومن أبرز طلابه صهره "دُورْسُونْ فقيه (*Dursun Fakih*)"؛ إذ صار بعد الشيخ أَدَبَالِي الثاني والقاضي في الدولة العثمانية.

(١٨) "أَسْكِي شَهِيرْ (*Eskişehir*)": مركز محافظة تحمل الاسم نفسه موجودة في منطقة وسط الأناضول بتركيا. يمر من وسطها جدول "بُرصوك (*Porsuk*)". وقد انتقلت المدينة إلى

سيطرة السلاجقة عام ١٠٧٤م. وكانت في عصر سلاجقة الأناضول مسرحًا للحروب التي درات بينهم وبين الصليبيين. وتذكر المدينة في ذلك العصر باسم "سلطان أونو (*Sultanönü*) ". وفيها العديد من الآثار التي ترجع إلى السلاجقة. وقد منح سلاجقة الأناضول "أَسْكي شَهِير" عثمان غازي عام ١٢٨٩م. وكانت انتقلت إلى سيطرة القرامانيين في عهد أورخان غازي، وضمها مراد الأول إلى الأراضي العثمانية من جديد.

(١٩) "دُورْسُونْ (*Dursun*)" فقيه : (توفي٧٢٦هـ/١٣٢٦م): أول قاض قرأ الخطبة باسم عثمان غازي، وهو عالم وشاعر وقاض وصهر للشيخ أَدَبَالِي وعديل عثمان غازي. درس التفسير والحديث والفقه من الشيخ أَدَبَالِي؛ وصار مريدًا له، وأتم السير والسلوك إلى جواره. كان يشارك في الحروب مع عثمان غازي، ويؤمّ الغزاة. وقد عيّنه عثمان غازي بعد فتح "قَرَاجَه حِصَارْ (*Karacahisar*)" قاضيًا للمدينة، وجعله إمامًا للمسجد المحوّل عن كنيسة. وهنا قرأ أول خطبة باسم عثمان غازي. وبحسب المصادر فقد كانت هذه أول خطبة تُقرأ تُعتبر علامة على استقلال العثمانيين. وقد كان دُورْسون فقيه من أوائل شعراء العصر العثماني الذين عاصروا "يونس أَمْرَه" و"عاشق باشا" و"كُلشهري (*Gülşehri*)". ويقال في بعض المصادر إنه توفي بعد أن تولى مكان الشيخ بمدة من الزمان. ويوجد قبره داخل زاوية الشيخ أَدَبَالِي في "بِيلَه جِكْ".

(٢٠) "بُورْصَة (*Bursa*)": اسم مدينة تركية في منطقة مرمرة، والمحافظة التي تقع في مركزها هذه المدينة. وتقع في شمال غرب جبل "أولو داغ (*Uludağ*)". وقد حاصرها عثمان بك لأول مرة عام ١٣٠٨م بعد أن انهزم تَكْفُورُها الذي تحالف مع غيره من التكفورات رغبة منه في إيقاف القوات العثمانية عند منطقة "دينبوز كجدي (*Dinboz Geçidi*)". ومع أن هذا الحصار لم يسفر عن نتيجة إيجابية إلا أنه شُرع في التضييق على المدينة عبر استخدام سياسة الحصار. واستسلمت المدينة للعثمانيين (في ٦ نيسان/أبريل ١٣٢٦م) نتيجة هذا الحصار الذي حكم على شعب بورصة بالندم والجوع؛ إذ استحال عليهم الحصول على أية مساعدة مدةً ربت على العشر سنوات. وقد جُعلت على يد "أُورْخَانْ غازي بن عثمان غازي" عاصمة للإمارة العثمانية لاحقًا.

(٢١) أَلْبْ أَرْسْلَانْ (*Alp Arslan*): (توفي ٤٦٥هـ/١٠٧٢م): اسمه أبو شجاع محمد بن داوود عضد الدولة برهان أمير المؤمنين. ثاني حكام دولة السلاجقة العظام (١٠٦٤-١٠٧٢م). وهو ابن "جاغري بك (*Çağrı Bey*)" ملك خراسان. ويُروى أن تاريخ ميلاده كان في ٤٢٤هـ (١٠٣٢ - ١٠٣٣م) أو ٤٢١هـ (١٠٣٠م). على حين يقول ابن الأثير: إن تاريخ ميلاده الحقيقي هو ١ محرم ٤٢٠هـ (٢٠ كانون الثاني/يناير ١٠٢٩م) .

هزم البيزنطيين في حرب "ملاذكرد (*Malazgirt*)" يوم الجمعة ٢٦ آب/أغسطس ١٠٧١م،

ففتح بذلك أبواب الأناضول للأتراك، وأثر في مستقبل تاريخ العالم. وقد استشهد نتيجة اغتياله في (١٠ ربيع الأول٤٦٥هـ/٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٠٧٢م). وكما تُظهرُ الألقاب والكنى والصفات المخصوص به فقد كان حقًا يتمتع بشخصية جسورة وشجاعة وقادرة وعازمة (عضد الدولة). وقد اشتهر بعدله إلى جانب هيبته كذلك. علاوة على ذلك كان متدينًا جدًا، وكان يُعرف بتطبيقه الأحكام الدينية بحذافيرها. هذا الجانب منه تسبب في أن يرفعه الناس إلى مرتبة الأولياء ويسندوا إليه الكثير والكثير من الكرامات. وتسجل التواريخ القديمة أن قصره كانت به ثمة دار للعمارة تذبح فيها خمسون شاة يوميًا، وتوزع النفقات على الفقراء المدونة أسماؤهم في قوائم منظمة. وقد كان يُنشئ من فوره مسجدًا في كل بلد يفتحها ولما يدخلها الإسلام بعد، ويُعرف أنه مارس عن طريق وزيره نظام الملك الفعاليات الاجتماعية مثل شؤون الإعمار وجمع رجال العلم والفكر والفن ورعاية وحماية الدولة لهم لأنه لم يكن لديه وقت وفرصة كافية لذلك جراء الفعاليات والأنشطة العسكرية. ومعظم النقود الذهبية التي أمر بسكها تظهر النمو والرفاهية الاقتصادية في عصره.

(٢٢) "كُوسَه مِيخَالْ (*Mihal*)": جد بَنِي "مِيخَال". وعلى حين كان أمير "خرمان قايا" التابعة لبيزنطة زمان عثمان بك، فقد انضم لاحقًا إلى رفاق عثمان بك المحاربين، ومن المحتمل أنه أسلم وصار تابعًا للعثمانيين عام ٧١٣هـ (١٣١٣م). ويُذكر أنه صار بعد إسلامه يُسمى بـ"عبد الله ميخال"، وشارك في حروب عثمان بك كلها، كما أنه كان يتولى إرشاد وذلالة الجيش العثماني في الغزوات الجارية في "صَقَارْيَا (*Sakarya*)". كذلك يُذكر أنه شارك في فتح "بُورْصَة"، كما أنه أدار المباحثات التي جرت بين "أورخان بك" وتكفور بورصة. والقبر المنسوب إليه موجود في قرية "خرمان" في ناحية "غازي مِيخَالْ (*Gazimihal*)" التابعة لـ"سوغوت" في "بِلَجِيكْ". وقد أعاد السلطان عبد الحميد الثاني في ١٨٨٥م إنشاء مقبرة "كوسه ميخال".

(٢٣) "أُورْخَانْ (*Orhan*) غازي" بن عثمان غازي مؤسس الدولة العثمانية. وهو ثاني سلاطين الدول العثمانية. وقد تسلطن بين عامي ١٣٢٤م إلى ١٣٦٢م. توفي ٧٦٣هـ/١٣٦٢م.

(٢٤) "يِرْجَه (*Yirce*)": جبل "يِرْجَه" يقع في الامتداد الجنوبي الشرق لسلسلة نجاد أُولُودَاغ- دُومَانِچ في القسم الغربي من الأناضول في تركيا. .ويبلغ ارتفاع أعلى مناطقه عن مستوى سطح البحر ١,٩٠٥ متر.

(٢٥) "صَامْسَا جَاوُشْ (*Samsa Çavuş*)": رفيق كل من أَرْطُغْرُل غازي وعثمان غازي. ولا يُعرف تاريخ ميلاده ولا وفاته. وهو أول شخص يستخدم لقب "جاوش" في الدولة العثمانية.

وفد إلى "سوغوت" مع عثمان غازي ومعه العشائر والخلايا التابعة له، وشارك في العديد من الحروب في عهد عثمان غازي. وأبرز وأضمر شجاعة وبطولة نادرة في فتح "إيزنك (*İznik*)" و"صُرقون (*Sorkun*)". فلما فتح عثمان غازي قلعة" قَرَاتَكِينْ (*Karatekin*)" عَيّن صَامْسَا جَاوُشْ واليًا عليها. وقد توفي صَامْسَا جَاوُشْ بعد عام ١٣٣٠م. ويوجد قبره في قرية "حَاجِي مُوسَلَرْ (*Hacımusalar*)" بالقرب من " مُودُورْنُو (*Mudurnu*)".

(٢٦) "مُودُورْنُو (*Mudurnu*)": هي في يومنا الحاضر مركز تابع لمحافظة "بُولُو (*Bolu*)". وتقع على مسافة ٥٢ كيلومترًا عن مركز المدينة. و"مودورنو" التي نعلم أن أول توطن تركي بها بدأ في العصر السلجوقي صارت فيما بعد نقطة مهمة في المنطقة الرئيسة التي تشكل نواة الدولة العثمانية. وقد تعرضت "مودورنو" لغارات عثمانية كثيفة، وانضمت إلى أولى أراضي الإمارة العثمانية بفضل توجيه وإرشاد "صامسا جاوش" و"كوسه ميخال".

(٢٧) سَقَارْيَا: محافظة تقع في إقليم "جَاتَلْجَه - وقُوجَه أَلِي (*Çatalca-Kocaeli*)" من منطقة "مرمرة" في تركيا. ومركز المحافظة هو "أَضَه بَزَارِي (*Adapazarı*)". وتقع "أضه بزاري" على القطعة اليابسة التي تأخذ شكل شبه جزيرة بين نهر "صَقَاريا" وجدول "جارق (*Çark*)" النابع من بحيرة "صابانجه (*Sapanca*)". وتأخذ اسمها من الرافد الجاري البالغ طوله ٨٢٤ كم والذي يحمل الاسم نفسه.

(٢٨) چَوْگَانْ (*çevgân/çevkân*)": لعبة الكرة أو الصولجان:

لعبة كرة كانت تُمارس ركوبًا على ظهر الخيل في قصور الشرق الأوسط والأقصى ولا سيما في العصور الوسطى، وهي تشبه لعبة "بُولُو (*Polo*)" في عصرنا. وأصل الكلمة فارسي. مقابلها العربي "صَوْلجان" أو "لعب الكرة". ومن المعروف أن هارون الرشيد الخليفة العباسي (٧٨٦-٨٠٩هـ) لعب الصولجان. وكانت هذه اللعبة واسعة الانتشار والممارسة لدى القراخانيين والسلاجقة. وكان الصولجان والكرة تلعب في مكان يسمى الميدان في قلعة الجبل في العصر المملوكي بصفة خاصة في مصر. حتى إنه كان ثمة موظف رسمي يحمل صولجان الحاكم. وشكلُ ممارسة اللعبة هكذا:



كانت لعبة الصولجان تُلعب في ساحة رباعية الشكل بين مجموعتين (فريقين) وجها لوجها بالعصي ركوبًا على ظهور الخيل. وكان اللاعبون يسجلون

الأهداف عبر تمريرهم الكرة التي يدفعونها بواسطة العصي التي يسمكونها بأيديهم من المرمى. وإن كانت الفرق تتكون بشكل عام من أربعة أفراد فقد كان هذا العدد قابلًا للزيادة بحسب مساحة الملعب الذي تمارس عليه اللعبة. وكانت العصي المنحنية الطرف الخفيفة المستخدمة في اللعبة بطول ١٢٠ أو ١٥٠ سم. بينما كانت الكرات في قطر ١٠ إلى ١٥ سم، مصنوعة من شجرة الصفصاف أو من شجرة السندان. علاوة على ذلك كانت تستخدم كرات مغطاة بالجلد بداخلها حجر الحصباء الصغير ملفوفًا بالنحاس الأصفر. وقد كان هناك مرمى واحد لكلا الفريقين يصوبان عليه.

(٢٩) أي: أمرد.

(٣٠) القَوْط: القطيع من الغنم ويقال له أيضًا "الفِرْق".

(٣١) "چَاقِيرْ بِينَارْ (*Çakırpınar*)": قرية تابعة لـ"بِيلَجِكْ" في يومنا الحاضر.

(٣٢) "إِيزْنِكْ (*İznik*)": إحدى مراكز مدينة "بورصة" في يومنا الحاضر. وتقع في شمال شرق "بورصة" التابعة لها، على شاطئ بحيرة "إِيزْنِكْ" التي تحمل الاسم نفسه.

وقد صارت "إيزنك" عاصمة السلاجقة والعثمانيين كذلك. كما صارت "إيزنك" أهم أهداف عثمان غازي في سنوات تأسيس الإمارة العثمانية. وحين تحرك عثمان غازي من"يَنِي شَهِير (*Yenişehir*)" في سنة ١٣٠٠م اجتاز جبال "أَوْدَانْ (*Avdan*)" وحاصر المدينة؛ إلا أنه أخفق في اجتياز الأسوار الشديدة الإحكام. وقد سار ابنه أورخان على سياسة والده، وواصل الحصار مدة من الزمان. وحين هزم الجيش البيزنطي في حرب "بلكنون (*Pelekanon*)" عام ١٣٢٩م تحدد قدر "إيزنك". وقد استسلمت "إيزنك" التي حوصرت حصارًا شديدًا بشرط قائد القلعة البيزنطي في أن يبقى بها من يرغب ويرحل عنها من لا يرغب البقاء فيها، وانتقلت المدينة إلى يد أورخان بك (٢ آذار/مارس ١٣٣١م). ولم يُتعرض لسكان "إيزنك" المحليين التزامًا بشروط الاتفاقية المبرمة بناء على استسلام "إيزنك"، وبقي الكثيرون من الزعماء والنبلاء برغم رحيل زُمَر الإداريين.

وصارت "إيزنك" حاضرة فنية في القرون الرابع والخامس والسادس الميلادي، وأُنتج فيها الخزف والسيراميك المشهور عالميًا.

(٣٣) خطّة "طُورَانْ (*Turan*)": ويطلق عليها أيضًا أسماء: خطة الهلال، وخطة فخ الذئب. حيث إنها استراتيجية عسكرية تهدف إلى القضاء على العدو عبر تطويقه من كل جانب. وقد كانت هذه الخطة شديدة التأثير في المعركة، وتتم على مرحلتين:

١- التراجع الكاذب.

٢- الخداع والكمن.

فكان الجيش ينفصل في لحظة الحرب إلى ثلاثة أفرع: الوسط والميمنة والميسرة؛ فتهاجم قوات الوسط العدو، وتتراجع إلى الوراء وكأنها تفر من أرض المعركة. وعلى حين تقوم بهذا تواصل الحرب بإطلاق السهام وهي على ظهر الخيل. وبهذه الطريقة كان العدو الذي يتبع الجنود المنسحبين من الخلف ينسحب إلى المكان المنصوب فيه الكمين بين ميسرة الجيش وميمنته، ويتم القضاء عليه حيث يشدد عليه الخناق.

وكانت هذه خطة معروفة بنتائجها القاطعة برغم صعوبة تنفيذها حيث كان الجيش العثماني يطبقها ويستطيع بها أن يهزم بقواته القليلة أعداء ذوي عدد كبير. وكان خالد بن الوليد ﷺ من أفضل القادة الذين طبقوا هذه الاستراتيجية الحربية في معركة الولجة، (٦٣٣م)، وكذلك ألب أرسلان في معركة ملاذكرد (*Malazgirt*)، وأيضًا السلطان سليمان القانوني في معركة موهاج (*Mohaç*).

(٣٤) جبل "دِينْبُوزْ (*Dinboz*)": جبل يقع في شرق مركز "يني شهير" في "بورصة".

(٣٥) إيزْمِيتْ (*Izmit*)": مركز محافظة "قوجه ألي (*Kocaeli*)"، وتقع في نهاية الخليج الممتد في اليابسة بـ ٥٠ كيلو مترًا شرق بحر مرمرة.

ونتيجة لبدء الإمارة العثمانية التوسع في شمال غرب الأناضول فقد امتدت غزوات العثمانيين حتى "إزميت" أيضا. وفي عام ١٣٢٩م دارت حرب بين أورخان بك والإمبراطور أندرونيكوس الثالث انتصر فيها أورخان بك. وإن كان الإمبراطور الذي تعرض لهزيمة نكراء استطاع أن يخلص "إزميت" شريطة دفعه الخراج (١٣٣٣م) إلا أنها انتقلت لاحقًا إلى سيادة العثمانيين، وأوكلت إدراتها لسليمان باشا. وحُوّلت بعض الكنائس التي فيها إلى جوامع، وجعلت إحداها مدرسة.

المصادر

Âşık Paşa oğlu Tarihi, ATSIZ, Milli Eğitim Yayınları, 1990.

تاريخ "آشك باشا أوغلو"، وزارة التعليم التركية، ١٩٩٠م.

Bu Mülkün Sultanları, Necdet Sakaoğlu, Oğlak Yayınları, 2004.

سلاطين هذا المُلْك، نجدة سقا أغلو، دار نشر "أُوغْلَاقْ"، ٢٠٠٤م.

Hadisât, Nişancı Mehmed Paşa, (Sadeleştiren: Enver Yaşarbaş), Kamer Neşriyat, İstanbul 1983.

الحوادث، نِشَانْجِي محمد باشا، دار نشر "القمر"، إسطنبول، ١٩٨٣م.

Kayı, Prof. Dr. Ahmet Şimşirgil, Tarih Düşünce Kitapları, 2003.

عشيرة "قايي"، أ. د. أحمد شِمْشِرْجِيلْ، دار نشر "الكتب الفكرية والتاريخية"، ٢٠٠٣م.

Osmanlı Devletinin Kuruluşu, Prof. Dr. Fuad Köprülü, TTK Yayınları, 1991.

نشأة الدولة العثمانية، أ. د. فُؤادْ كُوبْرُولُو، دار نشر "مؤسسة التاريخ التركية الحكومية"، ١٩٩١م.

Osmanlı Devleti Tarihi (c. I), Editör: Prof. Dr. Ekmelettin İhsanoğlu, Zaman Kitap, 1999.

تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، المحرر: أكمل الدين إحسان أوغلو، دار نشر "جريدة زمان"، ١٩٩٩م.

Osmanlı İmparatorluğu, Klâsik Çağ (1300-1600), Prof. Dr. Halil İnalcık, (Çeviren: Ruşen Sezer) YKY, İstanbul, Ağustos 2004.

الإمبراطورية العثمانية، العهد الكِلَاسِيكي (١٣٠٠ – ١٦٠٠م)، أ. د. حليل إِنَالْجِيكْ، ترجمة: روشن سزر، دار نشر "YKY"، إسطنبول، ٢٠٠٤م.

Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, M. Ziya Pakalın, MEB Yayınları 1993.

معجم المصطلحات والتعبيرات العثمانية، محمد ضياء بَاكَأَلِينْ، دار نشر "وزارة التعليم التركية"، ١٩٩٣م.

Osmanlı Tarihi (c. I) , Ord. Prof. Dr. İ. Hakkı Uzun çarşılı, TTK Yayınları, 1988

التاريـخ العثمانـي، المجلـد الأول، أ. د. إسـماعيل حقـي أُوزُونْ جَارْشِـلِي، دار نشـر "مؤسسة التاريخ التركية الحكومية"، ١٩٨٨م.

Sohbet-i Cânan, M. Fethullah GÜLEN, Gazeteciler ve Yazarlar Vakfı Yayınları, 2004.

صحبة الحبيب، محمد فتح الله كولن، دار نشر "وقف الصحفيين و الكُتاب"، ٢٠٠٤م.

Tacü't-Tevarih (c. I), Hoca Sadettin Efendi (Hazırlayan: İsmet Parmaksızoğlu), Kültür Bakanlığı Yayınları, 1992.

تاج التواريخ، خُوجَا سَعد الدين أفندي، دار نشر "وزارة الثقافة التركية"، ١٩٩٢م.

Türk Cihân Hâkimiyeti Mefkûresi Tarihi, Prof. Dr. Osman Turan, Ötüken Yayınları, 2003.

تاريخ هيمنة الأتراك على العالم، أ. د. عثمان طُورَانْ، دار نشر "أُوتُوكَنْ"، ٢٠٠٣م.

Türk Millî Kültürü, Prof. Dr. İbrahim Kafesoğlu, Ötüken Yayınları, İstanbul, Eylül 2004.

الثقافة التركية القومية، أ. د. إبراهيم قَافَسْ أُوغْلُو، دار نشر "أُوتُوكَنْ"، ٢٠٠٤م.